

علي بن سالم الورداني

الرحلة الأنكلسية

تحقيق
عبد الجبار الشريف

المهمة الوطنية للكتاب - الجزائر

دار الشؤون للنشر

الْحَلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

د: علي بن سالم الورداني

- 1887 -

جمعة وحققها وقدم لها

عبد الجبار السريفي

دار كونية للنشر

تقديم

1 - كلمة لا بد منها

في أمسية من أمسيات صيف 1981، وفي مقهى سيدي أبي يحيى برادس، كنت والصديق الأديب علي دب نتجاذب أطراف الحديث - كعادتنا - حول مشاريعنا الأدبية ومطالعائنا فإذا بالحديث يتطرق بنا إلى الرحلات العربية قديمها وحديثها. واتفقنا على إنجاز برنامج إذاعي يعرف بأغرب الرحلات. وهنا أشار علي الصديق علي دب بالرجوع إلى جريدة « الحاضرة » لسنة 1888 والاطلاع على رحلة لكاتب تونسي لم يذكر لي وقتها اسمه. وفعلت عدت إلى الجريدة المذكورة بقسم الدوريات بالمكتبة الوطنية أنصفح أعدادها فوجدت ضالتي. وعكفت منذ ذلك الحين على هذه الرحلة أقرأ سطورها فإذا هي رحلة إلى بلاد الأندلس لكاتب لم أسمع به من قبل اسمه علي بن سالم الورداني. وحز في نفسي أن تبقى هذه الرحلة حبيسة لا ترى النور، وحز في نفسي أكثر أن الجريدة التي عنيت بنشرها سنة 1888، بدأ يعتريها البلى فطمست كلمات كثيرة من الرحلة أضف إلى ذلك أن طبعها رديئة جدا نحتاج إلى تصحيح وعناية وتقويم فهي تغطى بالأخطاء، وهي على أخطائها نادرة لا تصل إليها الأيدي بسهولة.

وبذلك أصاب الرحلة الأندلسية ظلم كبير فلم ينهض لها محقق يجمع شتاتها ويقوم أخطاءها وينشرها في جمهور المثقفين المتشوقين إلى تراثنا. رغم مضي قرابة القرن على نشرها. وهذا سبب من الأسباب التي دفعتني إلى العناية بها وتحقيقها.

أما السبب الثاني فاقترح لطيف من المرحوم ج. ح. عبد الوهاب ورد في الجزء الثاني من « ورفات » يقول فيه : « وكم يروى لتونسنا العزيزة

المتشوقة إلى بلوغ الكمال بجمع الثنات وتدارك ما فات لو توفّق أحد بنينا
الغيورين واعتنى بنشر الرحلة الأندلسية على حدة، مع التعريف بمؤلفها
والتعليق عليها بما تستحق وبما يناسب (1) »

لهذا نهضت بالمهمة ، وبذلت أقصى ما أمكنني من الجهد لإخراج هذه
الرحلة بشكل يليق بها وبمؤلفها، وأحقّق في الوقت نفسه الأمل الذي كان
يرجو المرحوم ج. ح. عبد الوهاب تحقيقه.

2 - منهج التحقيق

إن الرحلة الأندلسية، نسخة فريدة لا أخت لها نشرت تباعا في جريدة
الحاضرة من سنة 1888 إلى 1890 في 28 عددا. وقد اعتمدت عليها في
التحقيق. ولقد استقصيت ما تيسر لي من فهارس المخطوطات علّني أجد أثرا
للمخطوطة الأصلية فلم أوفق. ولذا فقد كان اعتمادي على نسخة جريدة
الحاضرة وحدها، وهذا بحدّ ذاته مشكلة عويصة بالنسبة للمحقق، إذ يحرمه
من إمكانيات المعارضة والمقابلة والاستزادة من التحقيق والاستبانة. ومما زاد
في تعقيد المشكلة أن هذه النسخة الوحيدة مطبوعة طباعة رديئة جدًا. فهي
تغص بالأخطاء والتحريف. لذا فقد اقتضت مني جهودا كبيرة لقراءتها حرفا
حرفا للتحقق من صحة العبارات من الوجهة اللغوية.

وحيث أن الرحلة تتضمن عددا لا بأس به من الأبيات الشعرية، فقد
استوجب علاوة على ما تقدم التحقق من انضباط الوزن وفقا لبحور الشعر
المعروفة.

ولقد استعنت في تحقيق التراجم، وضبط الأعلام بما تيسر لي من
المراجع. وأعددت أيضا فهارس للأعلام والأماكن والكلمات الدخيلة استغرق
إعدادها وقتا طويلا واستنفدت مني جهدا كبيرا .

ومع ذلك فقد بقيت عدّة مواضع متأبّية على الوضوح والاستقامة إذ حالت
رداءة الطباعة دون استجلائها على وجه صحيح، وهي مواضع قليلة ونأمل

أن تتاح الفرصة لتقويمها على ضوء المخطوطة الأصلية إن أسعفنا الحظ
بالعثور عليها. ولا تكاد المواضع القليلة تقلّ من قيمة الرحلة وأهميتها.
وبعد :

فإنني ما ادخرت وسعا في إخراج النص والأمانة في نقله، وبذلت أقصى
ما أمكنني من الجهد، فأرجو أن أكون وفّقت إلى بعض ما اجتهدت، وأمل أن
يكون عذري في تقصيري أنني بذلت جهدي والله من وراء المقصد.

عبد الجبار الشريف
رأس 1982 - 1983

شكر وتقدير

وجدت في تحقيق هذه الرحلة كثيرا من العون والتشجيع والترحيب. وإذا كنت أريد أن أخصّ أحدا بشكري الخالص، وتقديري واجلالي، فإنما أبدأه بالصديق الأخ أحمد جليّد القائم على قسم الدوريات بالمكتبة الوطنية على مساعداته القيّمة وتسهيلاته الجمّة، ممّا لن أنساه له ما حييت. كذلك أشكر أستاذنا الدكتور علي الشابي على المراجع التي خصّني بها حتى أمكنتي التغلب على كثير من الصعوبات والعقبات.

عبد الجبار الشريف

البحث عن المخطوطات... والرحلة العلمية

يقفون في شجرة
أشجاراً نأ عيناً تنع
أشجاراً يقفون

انتشر أدب الرحلة بين العرب انتشارا كبيرا منذ العصور الإسلامية الأولى، وقد تعددت الأغايات والأغراض من الرحلات فبعضها استطلاعي ذو طابع عسكري، وبعضها تجاري، وبعضها ديني، وبعضها علمي. وبداية من سنة 1886 بدأ العرب سواء منهم المشاركة أو المغاربة يترددون على إسبانيا وقد تركز الغرض من رحلتهم حول طلب العلم. وتردد العرب على إسبانيا إنما يمثل ربطا جديدا للصلات التي انقطعت طوال قرون عديدة بين البلاد العربية والغرب عموما. وانعدام هذه العلاقات يمكن إرجاعه إلى صعوبات عدة أهمها : صعوبة المواصلات إلا أن السبب الرئيسي يكمن في انطواء المسلمين على أنفسهم خاصة في القرون الوسطى. ولقد بدأ العرب المسلمون يخرجون من هذه العزلة الذاتية إثر حملة نابليون بونابارت على مصر. وقد تجلت بوادر الوعي بمكانة الغرب مع محمد علي، الذي أدرك بعمق الأبعاد الحضارية لحملة بونابارت. وذلك ما جعله يقتنع بضرورة الاقتباس من الغرب مع المحافظة على الروح الإسلامية. كما جعله يقتنع بأن لا سبيل لتحقيق هذه المعادلة إلا عن طريق المعرفة. وأجدر بطالب العلم أن يأخذ العلم من منابعه، أي من بلاد الغرب نفسها. وهذا ما يفسر تكاثر البعثات العلمية العربية (1) خاصة ابتداء من 1828، وكانت روما وباريس ولندن وبرلين مقصد هذه البعثات، فيما ظلت إسبانيا بعيدة عن الاهتمام. ولكن تاريخ هذا البلد الذي عرف الإسلام لمدة ثمانية قرون سوف يحرك مشاعر

1 للاطلاع على تفاصيل البعثات في عهد محمد علي راجع: الراقعي، عصر محمد علي، 346-348 و365-380.

الحنين عند العرب وسوف يجلب وفودهم. وبالإضافة إلى هذا يرى « هنري بيراس » أن هناك عاملين أفرزا هذه الرغبة في الالتفات إلى إسبانيا وهما : إنشاء منشورات الجوائب في القسطنطينية، ومساهمة المشاركة في المؤتمرات العالمية للمستشرقين في أوروبا. (2)

وقد أسس أحمد فارس الشدياق في القسطنطينية مجلته الجوائب (3) في عهد السلطان عبد الحميد، وقد كانت ناطقة بالعربية وساهمت في نشر التراث الفكري والأدبي العربي وذلك بمباركة من السلطان عبد الحميد ؛ إلا أن الشدياق الذي عاش طويلا في أوروبا (4) وتشبع بالمناهج العلمية لم يكن ليكتفي بما توفر له من وثائق لا تخلو من نقائص تضعف من قيمتها العلمية. ولذلك حرص على الاطلاع على ما تحتويه المكتبات الأوروبية من مخطوطات عربية ليس له منها بدّ لمواصلة رسالة « الجوائب » كما يتصورها. ومن أهم المكتبات الأوروبية التي تحتوي على مخطوطات عربية ثمينة مكتبات إسبانيا وخاصة مكتبة الاسكريال بمدريد. ولعله أعلم السلطان عبد الحميد برغبته وتجسست هذه الرغبة ابتداء من سنة 1885 حين أخذ هذا السلطان يرسل البعثات إلى إسبانيا بحثا عن المخطوطات. وأول من فتح الطريق هما الشنقيطي (5) وعلي الورداني.

علي الورداني

Henri Pérès : l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans de 1610 A 1930. P 53 2

3 حزر الشدياق في « الوقائع المصرية » من 1825 إلى 1834 وبعد ذلك أسس « الجوائب » في

الأسنانة سنة 1860 . راجع طرازي ، تاريخ الصحافة العربية 1 - 61

4 أحمد فارس الشدياق : درس مبادئ العلوم اللسانية في مدرسة عين ورقة المارونية ، ثم اعتنق البروتستانتية، وتوجه عام 1825 إلى مصر حيث استوفى ما أتقنه من أصول العربية. بعد ذلك دعتة الارسالية الأمريكية إلى مالطة حتى عام 1834 فعلم اللغة العربية وتولى إدارة المطبعة الأمريكية وأقام في مالطة حتى عام 1848، وفي مشاهداته وانطباعاته هناك كتب سنة 1840 « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » ثم دعي إلى انكلترا لتعريب الكتاب المقدس. فسافر إليها في عام 1848 مازا في طريقه بفرنسا. وأقام الشدياق في انكلترا ثم في فرنسا حتى استدعاه جاي تونس 1855. وفي وصف رحلاته الأوروبية وضع سنة 1854 « كشف المخبا في فنون أوروبا » وفصولا عدة من سيرته الذاتية « الساق على الساق فيما هو الغاريق » راجع في سيرته : السندوبي، أعيان البيان، 170.111.

5 محمد محمود بن أحمد بن محمد التركي الشنقيطي توفي سنة 1904. اتصل بالسلطان عبد الحميد فكلفه بمراجعة الكتب العربية الموجودة في إسبانيا. من تصانيفه : « الحماسة السنية الكاملة المزية، في الرحلة العلمية الشنقيطية »، و« تصحيح كتاب الاغانى » و« حاشية على شرح لامية العرب » انظر : سركيس، معجم المطبوعات، 1150.1149. الشنقيطي، الوسيط 386.174. ج. ح. عبد الوهاب، مقدمة أدب المعلمين، 14. 11. 55.61. H. Pérès : l'Espagne...

علي بن سالم الورداني، نسبة إلى الوردانيين من قرى الساحل في دائرة
سوسة. بها ولد في سنة 1861، ثم قدم في صباه إلى تونس العاصمة ودخل
المدرسة الصادقية، وزاول تعلّمه بها وبرع في العربية وأتقن اللسانين
التركي والفرنسي، وتميّز بين أقرانه فلفت اهتمام الوزير الكبير خير الدين
باشا واتخذته كاتباً في حاشيته، ولما استقال هذا الوزير من منصبه بتونس
وسافر إلى اسطنبول - عاصمة الخلافة العثمانية - استصحب معه الورداني
سنة 1887م، وقد استفاد علي كثيراً من إقامته بالاستانة حيث زاد في إتقانه
للسان التركي، وقوي زاده في العلوم علاوة على تعرفه على كثير من أعيان
الدولة.

وعندما قرر السلطان عبد الحميد باقتراح من منيف باشا أن يرسل بعثة
علمية إلى إسبانيا وفرنسا وأنكلترا للبحث عن المخطوطات العربية المحفوظة
بخزائنها والتعريف بأهميتها، عرض الصدر الأعظم السابق خير الدين باشا
على السلطان هذا الشاب التونسي لمرافقة البعثة باعتباره مترجماً.

وبارحت البعثة إسطنبول يوم الأربعاء 19 ذي الحجة 1296 (8 سبتمبر
1887) على متن باخرة قاصدة مرسيليا، ومنها ركبت الرتل إلى مدينة
بورديو، ثم دخلت إلى إسبانيا وحلت بمدريد قاعدة البلاد، ومنها توجهت إلى
الإسكوريال حيث توجد مجموعة المخطوطات العربية، فاطلعت اللجنة عليها
وقيّدت ما اختارت منها، ثم انتقلت إلى طليطلة فإشبيلية فغرناطة، فقرطبة،
فبلنسية، فبرشلونة، ومنها عادت إلى باريس بعد أن قضت ثلاثة أشهر كاملة
في إسبانيا.

ولما عادت البعثة إلى الأستانة أقام الورداني مدة هناك قدّم في أثنائها
تقريراً في أعمال البعثة ونتيجة أبحاثها، ثم حنّ إلى مسقط رأسه وقد ترك به
والدته المسنة، فرجع إلى تونس وانخرط في سلك المترجمين بالوزارة
الكبرى، ثم ترقى إلى رتبة منشيء أول ومن ناحية أخرى استمرّ على الاشتغال
بالأدب ونشر المقالات والقصائد من نظمه في الجرائد المحلية، لا سيما في
جريدة «الحاضرة» لما كان له مع صاحبها ومؤسسها المرحوم علي
بوشوشة من المودة المتينة والصحبة منذ الصبا وعهد الدراسة، كما كانت له
علاقة ودية بغالب الشخصيات التونسية المعاصرة. وعاش علي الورداني

أعزب إلى آخر حياته. وكان خفيف الروح، له مداعبات ومزح لطيف حبه إلى عارفه زيادة على ما كان عليه من كرم الأخلاق وحسن المعاشرة مع شيء من الغفلة بأمور الدنيا وشؤونها المادية، مما زاد في محبة إخوانه له وعطفهم عليه. وكان ينظم الشعر بالمناسبات، وحرر المقالات في شتى المواضيع. وكانت وفاة علي الورداني في خلال سنة 1333هـ - 1905م (1) ومن آثاره - علاوة على أشعاره ومقالاته المتنوعة والموزعة هنا وهناك - رحلته إلى إسبانيا التي عنوانها بـ «الرحلة الأندلسية» وقد نشرت تباعا في جريدة «الحاضرة» من سنة 1305هـ إلى 1307هـ (1888-1889-1890م) في 28 عددا (3، 4، 5، 6، 8، 9، 11، 26، 27، 28، 30، 33، 34، 37، 40، 41، 42، 43، 53، 61، 62، 76، 90، 91، 94، 98، 100، 103).

1. ح. ح. عبد الوهاب : ورقات. ج 2 ص 461 - 465 وكذلك :

H. Pérès · l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans de 1610 A 1930 PP 62-63

سير الرحلة وأهميتها...

انطلقت البعثة من إسطنبول يوم الاربعاء 19 ذي الحجة 1304
8 سبتمبر 1887 في الساعة الحادية عشر صباحا على متن باخرة تسمى
(الموز) تابعة لشركة (بكيت) الفرنسية. ووصلت إلى مارسيليا في فجر يوم
الخميس 28 ذي الحجة سنة 1304 17 سبتمبر 1887 واتجهت البعثة إلى
بورديو بالقطار يوم الجمعة 29 ذي الحجة 18 سبتمبر ووصلت إلى الحدود
الإسبانية يوم السبت 1 محرم سنة 1305 19 سبتمبر 1887 على الساعة
الواحدة بعد الظهر.

وفي شهرين زارت البعثة المدن التالية : مدريد والاسكوريال وطليطنة
وإشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية وبرشلونة ثم باريس. وكان الهدف من
هذه الرحلة - كما قدمنا - دراسة المخطوطات العربية الهامة الموجودة في
المكتبات الحكومية أو الخاصة ورسم قائمة فيها لغرض نشرها فيما بعد.

ولقد كان الورداني مثل أسلافه يسعى إلى تدقيق مصدر هذه المخطوطات
ولكننا يجب أن نعترف بأنه لم يتوصل دائما إلى التمييز بين المعلومات
الصحيحة والباطلة. ولئن أكد بأن محتوى الاسكوريال ليس مصدره من
المكتبات التي تركها المسلمون لأن النصارى، عندما يستحذون على مدينة،
كانوا يحرقون كل الكتب العربية باستثناء بعضها (1)، فإنه يخطيء - حسب
قول هنري بيراس - عندما يقول : « إن هذه الكتب هي من كتب زيدان أمير
المغرب كان اشتراها من المشرق وبينما مأموره قد قدموا إذ فاجأهم سفن
إسبانيا الحربية قريبا من بوغاز (سبتة) (جبل طارق) فغلبتهم وغصبت هذه
الكتب » (2). وهذا الخطأ متأب دون شك من أن الورداني - وقد تلقى هذه
المعلومات مشافهة من إسبانيين - لم يفهم جيدا ما قيل له نظرا لأنه لا يحيد
اللغة الإسبانية. وهناك عامل يؤكد لنا ذلك بوضوح : ففي قرطبة فوحى
الرحالة عندما لم يجد أي مخطوط : « وبحسنا في المكتبات جميعها فلم نجد
أثرا للكتب العربية أصلا وهو أمر عجيب، فإن مجامع الكتب التي كانت في
قرطبة هي من الكثرة بمكان عظيم في الزمن السالف. حتى أن السفير المتمرس
إليه عرفنا أن فهرست الكتب العربية الإسلامية التي كانت باقية عند محرم

1 الرحلة الاندلسية.

2 المصدر السابق.

الإسبانيولين كانت خمسة وأربعين مجلدا على ما حققه من تواريخ الإسبانيولين وغيرهم (3). ويستخلص الورداني « أن الإسبانيولين لما دخلوا قرطبة لم يستعملوا الحكمة في استبقاء آثار العلوم ولم يعرفوا مقاديرها حتى ينتفعوا بها فأتلفوها عتوا واستكبارا » (4).

إن الورداني لم يفهم أن المعلومات التي قدّمت له تتعلق لا بمكان يوحّد في قرطبة أثناء الغزو الإسباني، ولكن بالمكتبة الشهيرة (5) للخليفة الأموي الحكم الثاني (ت 366 = 976) التي أتلفت لا عن طريق النصارى بل عن طريق المسلمين البرابرة أو السلاجقة في مستهل القرن الحادي عشر في فترة الفتنة (6).

واهتم الورداني اهتماما كبيرا بالتفسيرات التي قدّمت له عن ظروف إتلاف المخطوطات العربية : فمن الناحية الزمنية يعتبر القرن التاسع عشر من أشأم القرون على الأدب العربي إذ أتلفت فيه آخر كنوز هذا الأدب، ومن الناحية السياسية فقد صادر نابليون الأول ما تبقى من هذه الآثار الأدبية ونقلها إلى باريس « وما بقي منها في المكتبات تناثرته أيدي الغوغاء في أثناء الثورات المتوالية التي حصلت في البلدان » (7).

وفي الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد. قدّمت للورداني مخطوطات عربية اكتشفت في طليطلة وكانت مناسبة حسنة لاثبات الاستمرار المدهش للغة والخط العربيين في مدن خضعت للسيطرة النصرانية، ولكنه اكتفى بأن لاحظ هنا « لم نجد شيئا من الكتب العربية إلا بعض أوراق اطلعت منها على حجة بيع بعد زمن الاستيلاء يقول فيها : اشترى فلان من فلان على مقتضى شريعة عيسى عليه السلام فدلنا ذلك على أن إسبانيا لما دخلت بلاد العرب ألزمت الأهالي بترك الدين قسرا » (8).

3 الرحلة الأندلسية.

4 المصدر السابق.

5 حول مكتبة الحكم انظر : المقري - نفح الطيب ج 1، 250، 11، 50.49 وكذلك : - Lévi Provençal : L'Espagne. Musul. au Xe Siècle P 233-234

- Dxy, Hist. Musul. l'Espagne. II, 183-184

- H. Pérès, l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans, P 65

6 راجع الأندلسية

7 نظ راجع

اهتم الورداني بالعملات الإسلامية المحفوظة في الاسكوريال ؛ لكنه يعرف بأنه كان غير قادر على قراءة الكتابات التي كان يحددها على قطع النقدية الأندلسية. في حين أن درهما من سلسلة أخرى يبوح إليه بسرّه قد يعود تاريخه إلى عهد « الهادي ». ويرجع ذلك إلى تسرع في التعميم بأن كل هذه المجموعة النقدية الشرقية لا بد أن تكون من عصر الخليفة العباسي الرابع « موسى الهادي » (9) ذلك أنه الأمير الوحيد الذي حمل هذا النقب. وإلى حدّ الآن لا يسعنا إلا أن نعتبر الورداني الثاني بعد الشنقيطي وأكثر منه اطمئنانا ؛ لكن من الخطأ اعتباره مجرد محقق للمخطوطات فعلاقته بالرحلة تبين لنا أنه - هو أيضا - يحسن الاهتمام بمعالم الهندسة الإسلامية. ويحاول أن يستخلص الأبعاد الهائلة لقوس جسر أو لبطحاء أو لمسجد أو صومعة، عندما تثير فيه هذه المعالم الإعجاب، فالحسر في طليطلة عربي، أما الناب فمشكوك في أصله. وقد تحوّل فيها أحد المساحد على إثر عودة الأسبان إلى بيعة يهودية ثم إلى كنيسة مسيحية ثم رمم وأرجع إلى هيئته يزوره كثير من السياح (10).

ويشير - هنري بيراس - إلى أن الورداني قد وقع في خطأ عندما اعتبر قصر بني « ذو النون » (11) قصر ابن هود (12) وهو يوجد حسب اعتقاد الورداني على أرض لنبيل يسيطر على النهر وعلى المدينة، وقد ثبت فيه النيران بعد سنة وألحقت به أضرارا فادحة. ثم يشير إلى أن الحكومة صرفت مبلغ مليونين من الفرنكات لاصلاح ما فسد . وفي إسبيلية تمثل « الجبر الداء » وهو بسميها ببساطة منارة ، معلما يبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا وعرضه أربعة أمتار. كما أعجب بالقصر الذي يوجد بهذه المدينة فيقول متحدثا عنه : « هو

9 انظر تعليق ص 45.

10 إنه يعني بلا شك كنيسة القديسة مريم البيضاء .

انظر : H. Pérès : l'Espagne vue par les voyageurs Musulmans. P 66

11 بنو ذو النون : أسرة من البربر من قبيلة الهوارة انتقلت إلى إسبانيا فيما . حكموا في عهد ملوك الطوائف (القرن 11) مقاطعه تمتد من وادي الحجارة حتى مرسية كانت عاصمتهم ضيقة

الفتن على أمراء قرطبة. زالت الأسرة بموت يحيى القادر . انظر : دائرة المعارف الإسلامية ج 1

ص 308-309.

12 انظر ص 47.

مره للناظرين وعرة للمفكرين» (13). ثم استحضر بالمناسبة وببديهة
لأنسب العربي بعض الأبيات من الشعر.

وفي غرناطة يسحر قصر الحمراء خيال الزائر بموقعه حيث الأشجار
والسسيم العليل، ولكنه يعترف أنه ليس من الممكن لأي كان أن يقدم وصفا
دقيقا لهذا المعلم. إذ يحتاج ذلك إلى مجلد بأكمله. فقبل الدخول إلى قاعات
القصر ذاتها يلاحظ عددا هاما من الزخارف التي - وهي موضوعة في
الساحة - تعكس بكل وضوح صورة هذا المعلم العظيم - ولقد ذهل بعدد قوافل
السياح الذين يزورون هذا المكان الخلاب وخاصة منهم الأنكليز :
«فتهافتهم على زيارة الحمراء بهذه الدرجة يعلن لمن تبصر مقدار أهميتها في
العالم المدني ويبين مقدارها لدى المجتمع الصناعي الغربي» (14). والذي
يشث ذلك عدد المؤلفات المكتوبة باللغات الأوروبية عن «الحمراء». وقد
نشر أحد العلماء كتابا ضخما عن هذا البلد وعن غيره سمّاه «حضارة
العرب» طبع بباريس سنة 1884، تناول فيه موضوع الحمراء سواء أكان
ذلك عن طريق النصوص أو عن طريق الصور. (15)

وقد وردني على إثر هذه المقدمة وصفا موجزا للقصر نفهم من خلاله
أنه قام بزيارته مع دليل فصيح يعرف هذا المعلم معرفة جيدة. وتفكر
المصطلحات الفنية التي استعملها «سيموني» نفسه، وهو أستاذ اللغة
العربية في جامعة غرناطة إلى شيء من الدقة. «فبطحاء» هي عبارة عن
ساحة منبسطة ومكشوفة، و«حوض» يعني أحيانا البركة ذات النافورة،
وقاعة السفراء تسمى قصر السفراء، وكل من الرخام والحجارة البيضاء
الصقيلة يدعى مرمر. لكن إذا كان الفني يقع أغلب الأحيان في الخطأ فإن
الاديب المتذوق للفن لا تفوته الفرصة أن يترجم صورة الجمال الذي يحس
به : «وكل الحيطان وباطن القبة مزين بالنقوش البارزة ذات الأشكال
لعمسة الدانة على ما كان للدولة الإسلامية من الاقتدار الصناعي العظيم

13 الرحلة الاندلسية.

14 المصدر السابق.

15 هو العالم الفرنسي غوستاف لوبون (1841-1931) انظر الموسوعة العربية الميسرة. ط. 1. ص 1569.

بحيث إنك إذا تأملت في هذه النقوش جزمت حالا بأن المعلم، لصاحبه حد
الدرجة الأولى في بلاد الأندلس. وأن الثروة والعظمة كاسا عندهم في سعة من
الزّمان ولكن الدهر أثر على الطلاء الذهبي فأباد جلّه وأبقى آفته» (16).

وعندما غادر الورداني قصر الحمراء أجرى حديثا مع دليله - سيموني
فيما يبدو - وحرص على أن يقدم لنا أهم ما جاء فيه : «وعندما حرحرحت
لي مزورنا وهو إسبانيولي : تعلم أننا استعملنا ثمانية قرون حتى رحرحت
العرب عن ملكها واستولينا على هذه القصور ؟ فقلت له : «إن الأرض
لله يورثها من يشاء من عباده» ولكن هل ترى أنكم أهدرتم دماء منات الوف
من جنودكم فيها ؟ فقال : بل ملايين. فقلت له : إن طارقا عبد موسى بن
نصير استولى على إسبانيا في ثلاث سنين، ولم يكن معه إلا واحد وعشرون
ألف مقاتل. فاعترف بهذا المقدار» (17).

ولم يشر الورداني فيما أشار إليه من المعالم الموجودة في قرطبة إلا إلى
الجسر والمسجد «إذا تجاوزت القنطرة إلى الجانب الآخر تجد بطحاء حنية
تشهد أنها كانت من العمار بمكان ولكن اضمحلت بالمرّة حتى أنني لم أجد
لقصر المرحوم الخليفة عبد الرحمان الداخل المسمّى بقصر الزهراء من أثر
يذكر» (18).

أمّا في وصفه المقتضب للمسجد فليس هناك شيء يمكن أن يشدّ إليه
انتباهنا. والشيء الذي يستحوذ على إعجابه هو دائما زخارف المحراب :
«والمحراب والمنبر من المرمر الصافي منقوشان بالنقوش البديعة المعربة
عن سرّ الإتقان الصناعي حق الإعراب» (19).

ومن اللافت للانتباه أن الورداني لم يكتف بتسجيل كل ما كان يصل إليه
من خلال المخطوطات العربية والمعالم الإسبانية الإسلامية، بل قدّم بعض
الملاحظات حول المجتمع الإسباني.

ولعله كان من الأوائل الذين وصفوا لنا سباقات الثيران إلى حد يجعلنا

16 الرحلة الاندلسية

17 المصدر نفسه.

18 انظر الرحلة الاندلسية.

19 المصدر السابق.

بحرج نتائج عن مدى وقعها من الناحية السيكولوجية والاجتماعية « إن هذه الألعاب قد أثرت في أخلاق الإسبانوليين شدة وحماسة، لتعودهم دائما على مشاهدة الدماء وسفكها واستهانة الخطوب وارتكابها... ولهذا لاتكاد إسبانيا تنحرف من الشغب والقتال ».

وبامكاننا أن ندحض هذا التفسير : هل أن سباقات الثيران هي التي شكلت طبيعة الإسبانين على هذا النحو أم أن هذه الطبيعة سابقة لظهور هذه الألعاب الدموية ؟ إلا أن الورداني في الحقيقة يرى أن هناك تلازما بين الاثنين.

وقد استطاع كذلك أن يبرز الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية لسباقات الثيران بشكل دقيق « إن هذه الألعاب تشغل الوفا مؤلفة عن الأعمال ثلاث مرات في كل أسبوع. ولا يخفى ما يؤثره هذا التعطيل في الأحوال المدنية بأقسامها مادة ومعنى إذ يتعطل الصانع عن صناعته والتاجر عن تجارته والمحترف عن حرفته. أما تأثيره في الأذهان فهو مهم جدا إذ يمنعها في الأعمال الراهنة من الاسترسال في تتبع العلوم والمعارف. ولعل هذا هو من الأسباب التي حطت درجة الإسبانوليين في النظر المدني والمجتمعات العلمية من أوروبا وهو الذي منعها من استكمال دواعي الثروة العمومية » (20).

واستند الورداني بعد ذلك فيما يتعلق بنفس هذه السباقات إلى إحصائية لأيام العمل وأيام العطل على امتداد ستة أشهر بين الربيع والصيف. وتوصل إلى نتيجة التالية : إن الإسبانين لا يعملون إلا ستين يوما خلال ستة أشهر، ويستخلص الرحالة أنه بالنظر إلى كل هذه الخسائر فإن إسبانيا لا تجني من ذلك إلا شجاعة وجراة، وهذا قد لا يكفي لصنع عظمة بلد ما.

وتضمنت رحلة الورداني في نهايتها عددا من الملاحظات حول لغة الأسبانين وأخلاقهم التي نعتقد أنه من المفيد تحليلها بسرعة ذلك أن الورداني يلاحظ أن الألفاظ العربية مستعملة لدى الإسبانين بمعانيها العربية مثل : فلا ، مندبل ، فنتورة ، قط ، قصر ، سكر ، قاضي ، إن شاء الله ، الخ... وأداة التعريف للمذكر المفرد « أل » بقيت بدورها حية.

وقد أعلم « سيموني » الرحالة التونسي أنه يوجد في الشعة الإسبانية من ثلاثة آلاف لفظة من هذه الألفاظ والتي وضع فيها معجم خاص. وسأل الورداني إلى أن معظم هذه الألفاظ قد تعرض إلى التحريف فقط صحت (فت) وقصر (كشر) وسكر (شكر) وإن شاء الله (أوخا الله) الخ...

ووصل إلى حد البحث إن كانت هناك عائلات إسبانية ما تزال تحمل أسماء عربية وذهب إلى أبعد من ذلك عندما تساءل إن كانت تنحدر من سلالات عربية ؟ ومن سوء الحظ فإن والي غرناطة نفسه يجيبه بكل ثقة أنه ليست هناك عائلة إسبانية واحدة تحمل حاليا لقبا عربيا.

إن الملاحظات حول الأخلاق والعادات تبدو طورا منصفة وباعثة على الإطلاع لما تنسم به من صراحة، وطورا مثبطة لما تتصف به من تضارب. وفيما يتعلق باللباس، يذكر الورداني أن نساء الريف يلبسن على طريقة القرويات بالبلاد التونسية وأن رجال منطقة (بلنسية) الذين يشتغلون بالنسنة لا يلبسون سراويل طويلة ولكن سراويل تنتهي عند الركبتين مثل التي يلبسها الرجال بالبلاد التونسية، وذلك حسب رأيه برهان مقنع على تغلغل التقاليد العربية في إسبانيا (21).

ولا تأخذنا الدهشة إن وجدنا بعض الانطباعات حول النساء فهن « من أجمل نساء أوروبا لامتزاج الدم الإسبانولي بالدم العربي وتناسب الثوب والأشكال في أغلبهن، وهن في الحقيقة أجمل من نساء فرنسا إلا أن هاتيك ربات خلاعة وأداب أخرى. وتتميز الإسبانوليات بقوة الترح وعندهم مراحم الرجال والاختلاط معهم لقلة خروجهن وعدم تعودهن على التحول لدم والتهافت الكثير » (22). فالورداني يريد أن يجعل منهن نصف محتجحات ربما لما عرفه لدى النساء المسلمات اللاتي عشن في هذا البلد.

لقد خرج من الأعراف السياسية والإدارية بملاحظات أكثر دقة : « ومن غرائب أحوالهم أن كل وزارة حديدة تعزل جميع المستخدمين من سلفي لسلفها، وتستخدم غيرها من أحزابها وكل ناظر إدارة متى توظف أخذ من

حزبه مستخدمين وعزل جميع المأمورين السالفين، وهذه الاسباب الوحيدة في عدم أمن المأمورين على وظائفهم عند التقلب فتتمد أيديهم إلى اغتنام الفوائد الخاصة التي يرجون بها تأمين استقبالهم وداعية إلى حرصهم على الحركات والأعمال المتضاربة عند عزمهم لنوال الوظائف. ولا يخفى تأثير ذلك في أحوال الهيئة الاجتماعية وما يستلزمه من تشوش الأذهان وتأخر الحوائج واضمحلال الحقوق « (23).

ويورد الورداني رأيا حول التعليم بإسبانيا : « ومن العادات المضرة أيضا عدم إجراء التعليم الاجباري في إسبانيا كما هو في فرنسا وغيرها فإن ذلك قد أوجب لهم التأخر عن جميع الإفرنج في العلوم والفنون والصنائع، وإن كانت حضريتهم لا بأس بها إلا أنها تحتاج لنيل درجة فرنسا أو غيرها من الدول إلى مائة عام » (24).

والكاهن بما يملك من سلطة يبدو في نظره العقبة الكأداء في طريق نشر التعليم، فنظره إلى الأشياء لا يخلو من عيب، هو أنه يبحث عن تحويل المسلمين إلى مسيحيين مثل الورداني نفسه الذي جاء إسبانيا في مهمات علمية.

وأخيرا فإن أهمية هذه الرحلة تتمثل في كونها صورة تجسم مرحلة وعي مزدوج : الوعي بتخلف العالم العربي الإسلامي، والوعي بضرورة الاقتباس من الحضارة الغربية، وهي من هذه الوجهة تأخذ بعدا إصلاحيا. كما أن اهتمام الرحالة بإسبانيا يندرج حسب رأينا في التيار السلفي الذي سعى إلى عملية بعث لمجد الأجداد والانطلاق منه لإرساء دعائم النهضة الجديدة.

عبد الجبار الشريف

الرحلة الأندلسية

21 الرحلة الأندلسية.

24 المصدر السابق

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد فيقول الفقير إلى الله سبحانه وتعالى علي بن سالم الوردى النونسي : أنه لما كان الاهتمام بشأن تقدم العلوم والمعارف من أجل المقصد المنجيهة نحو تقدمها يوما فيوما أنظار جلالة مولانا السلطان المعظم عبد الحميد خان (1) أيد الله سلطنته بعثت نظارة المعارف العمومية السلطانية مأمورية إلى اسبانيا وباريس ولندرة للاطلاع على بعض ما بها من الآثار العربية ولكتب النفيسة الإسلامية وعسنتى ترحمانا للمأمورية بأمر حضرة الوزير الخضير والفيلسوف الشهير عالم الوزراء ووزير العنماء صاحب الدولة منيف باشا وزير المعارف العمومية، فأحببت أن أكتب شيئا من رحلتى هاته وما استكشفت من المشاهدات والآثار بتلك الديار قياما بواجب الخدمة، وتقديم لفرانض الذمة، والله سبحانه وتعالى المسؤول في جعله مظهرا للقبول إنه هو الولي الحكيم.

مبدأ الرحلة

تلقينا الأوامر العلية اللازمة والتعليمات المقتضية من نظارة المعارف الجليلة، وأخذنا في التداركات السفرية، فلما كان يوم الأربعاء المبارك الموافق تاسع عشر ذي الحجة سنة 1304 بارحنا دار الخلافة لعظمى على الصفة الآتية : وهى أننا قد مررنا من باب الكمرك (2) النكان فى ناحية المعروفة (بسرکه جى اسكله سى) وبعد أن تحرى موظفوه أمتعتنا حسب

(1) السلطان عبد الحميد (1876-1909) حكم البلاد حكما فاسيا ، كثرت فيه التبعون ، واختلت موازين الامور . كان عهده طافحا بالحروب : فحارب صربيا 1876 وروسيا 1877 . 1878 . وانتهى القتال بعقد معاهدة سان ستيفانو التي عدلها مؤتمر برلين 1878 . ثم عليه 1908 الضباط الشبان المنتمون الى حزب تركيا الفتاة وكرهوه على منح دستور 1908 . ثم خلفوه 1909 حين لمسوا نواياه السيئة . انظر الموسوعة العربية لمبدرة ط 1 - 1180 . القاهرة 1965 .

(2) الكمرك : (تركية) الجمرك .

وربما رافعة ومائت حيلة، منها القشلاق (10) الموسوم بالحميدية فإنه قشلاق
هذه من مشرف على بحر، وفيه كسر من الجند العثماني وفيه يكون
تعدد عسكري.

ومن أعمال هذه المدينة الأواني الفخار الناضرة التي تضارع الصيني في
جودتها ورواقها. ولم يمكن من التحول فيها لعدم معرفة وقت السفر. ثم إن
تغير النقي ما حملها إليها واحمل ما احمل عنها من الركاب والبضائع وأخذ
الرحضة من الحكومة السنوية كما هي العهود المقررة بين الدولة العلية والدول
المؤيدة وسافر منها في الساعة العاشرة من ذلك اليوم وفي الساعة الرابعة من
يوم الجمعة 21 ذي الحجة وصلنا إلى أزمير.

أزمير

عندما أقبلنا على مدينة أزمير استقبلنا مرساها البهيج بين جبلين عظيمين
قد أحدا بالبحر وهي كائنة على شرقي البحر ومرساها منتظمة جدا بحيث
ترسو القابورات على ذات الرصيف أو قريب منه. وإذا نظرت إلى المرسى
وحدها مشحونة بالقابورات المختلفة. الرايات مزدحمة بين راحل وحال
وناقلة إليها وعنها، ركابا وبضائع بحيث يدل ذلك التزاحم على كثرة علانقها
التجارية وكثرة تردد التجار والمسافرين. فإذا نزلت الاسكلة (11) رأيت
شاطئا معتدا من الشمال إلى الجنوب مشرقا على البحر من جهة، محدودا
بالمسي الفلقة والدكاكين والقهواي والأوتيلات (12) العامرة من جهة أخرى،
وبينهما أي بين المينائي والبحر تجري عربات السكة الحديدية
وسرامواي (13) ولرحاء محسك دائما وهذه المرسى من آثار حضرة السلطان

11 نفسة في تركية قسنة وقتلا من كلمة قيش بمعنى نشء والقشلة هي المعسكر
نضوي د. حمد السعيد سليمان. تاصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل .
ص 169 .

12 من الباطنية سدا
13 الأوج الخشبية التي تثبت
تعرية الدرجة
(ب) رصيف الميناء البحري . ثم توسع فيها ، فأطلقت على الميناء .
(ج) أسكل ، واسكلات . انظر تاصيل ما ورد في تاريخ الحضرة من الدخيل . ص 16
نزل

14 وسكات كلمة دخيلة
15 الترامواي :
نزل

المعظم عبد الحميد أيده الله تعالى ، فأنها من مائر أيام حضرته الحمسة
والمدينة كلها عامرة وأهلها أهل تجارة وزراعة وفيها معامل أشهر : معاصر
التين والزبيب، ومنها يحمل إلى أوروبا. وفيها من الفاكهة خيرات كثيرة وفيه
جريدتان تركيتان إحداهما رسمية وهي جريدة (إيدين) وأخرى سميت
(خدمت) وفيها جرائد رومية وإفرنجية لم يمكني الاطلاع عليها. وفيها مكتب
تركية ورومية وإفرنجية، وفيها ترق عظيم في العلوم والمعارف وهي مركز
ولاية (إيدين) وأكبر مدن الاناضول وأشهرها تجارة وثروة .

وبقينا فيها إلى الساعة الحادية عشرة من يوم السبت 22 ذي الحجة،
وسافرنا منها يومئذ والبحر شديد الاضطراب هائج الرياح، فجرى بنا القابور
بين تلك الاضطرابات المتوالية، والأمواج الهائلة مدة يومين تقريبا حتى أن
حال البحر منعنا الراحة والطعام في أغلب الأوقات.

ومازلنا كذلك حتى وصلنا إلى بوغاز (مسينا) وهو من ممالك إيطاليا
فوصلنا إليه في الساعة الحادية عشرة يوم 25 ذي الحجة. وهو بوغاز نصيف
كائن بين جبلين خصبين متوسطين في الارتفاع والمجرى يأخذ من الجنوب
إلى الشمال مقدار ساعتين بسير القابور . وكان مسير قابورنا في الساعة
الواحدة عشرة أميال . وأكثر الأشجار النابتة في الجبلين ، أشجار ظليلة غير
مثمرة وليس في هذا البوغاز شيء من القلاع والحصون لعدم تعلقه بحماية شيء
من الأراضي . وهذا البوغاز يفصل بين إيطاليا وبين جزيرة (سيسيليا) (14) .

وتوجد شركة قابورات صغيرة تشتغل بحمل الركاب والبضائع بين إيضاب
وبين الجزيرة ، مثل : الشركة الخيرية المعلومة في دار السعادة نعلية .
وهواء ذلك البوغاز حيد نقي جدا . ومدينة (مسينا) هذه هي مقر حكومة إحدى
ولايات سيسيليا الخمسة ومقدار نفوسها ألف نسمة . وهي من حملة مصريف
إيطاليا وأوروبا عموما .

ثم تجاوزنا البوغاز المذكور وسرنا قاصدين مرسيليا واستمر سيرنا ثلاثة
أيام تقريبا لا نرى سوى سطح البحر . وفيه فيروز السماء لال نصف نهوء
وركود الماء لم يسلب لنا راحة . فلما كان ليلة الخميس 28 ذي الحجة وحسب

(14) صقلية .

الساعة الثامنة تقريبا دخلنا الخليج المسمى (كولف دوليون) (15) بمعنى خليج الأسد . وهو خليج مرسى مرسيليا مجراه من الجنوب الى الشمال . وهو خليج شديد الوعرة مضطرب الامواج في كل وقت ولهذا سمي خليج الأسد . ومازلنا نسير أكثر من ثلاث ساعات . وفي شروق يوم الخميس المذكور وصلنا إلى المرسى .

مرسيليا

هي في جنوب فرنسا على البحر المتوسط ومرساها منتظم جدا . وهي أول مدينة تجارية بفرنسا بعد باريس لأنها ممر جميع البضائع التي تخرج من فرنسا إلى إيطاليا واليونان والممالك المحروسة ، ودولة روسيا وإسبانيا والمغرب الأقصى وسنقالية والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والهند . وكمركاها غني جدا . وقد وجدنا في ساحة الميناء يوم دخولنا نحو أكثر من ثلاثين قابورا تجارية . ومراسي القابورات فيها كمرساها في مدينة أزمير والمدينة مربعة الشكل وعدة نفوسها 350.000 تقريبا . ومبانيها شاهقة إلى خمس طبقات والازقة متسعة مرصوفة بالأحجار الصلدة ، وسعة الشوارع تختلف من خمسة أمتار إلى اثني عشر تقريبا . وجميعها مستنير بالغاز سواء شوارعها وأزقتها فليل فيها كالنهار . وأحسن ما شاهدت فيها من المنازه العمومية المحل المسمى (كانبير) (16) ، وهو مجمع عظيم يشتمل على قهوي وأوتيلات ومباني ودور عديدة وبستان صغير وهو منتزه القوم .

ومن معاملهم المشهورة : معمل الشمع ، ومعمل الصابون ، ومعمل آخر لاستخراج الزيت ، وهو قريب من المكان المسمى (كورس بونابارت) (17) . وهو منتزه آخر من منتزهاتهم .

وعلى مقربة من ذلك المكان ربوة عالية تسمى (كولين بونابارت) (18) بها شحار ضليقة عظيمة ومياه جارية تنبع من منابع عديدة فتجول في خلال هذا المنتزه . وهي مشرفة على المدينة وعلى البحر ، ومنظرها بهيج لكن ليس

golf de lion	15
Canal	16
cours Bonaparte	17
cours Bonaparte	18

بها مباني الآن . والطرق الموصلة إلى الربوة سهلة منتظمة بحيث لا نحب الصاعد ولا يصعد إليها إلا المشاة لتعذر مرور العربات والخيول لوحود بعض درجات وانحناءات أثناء الارتقاء . والمنتزه في قنة الربوة يسمع منه خرير المياه المنحدرة كالآلات المطربة ذات النغمات المختلفة . وفيها عدة مكاتب (19) مهمة عظيمة الفائدة منها : المكتب التجاري ، وفيه تدرس علوم التجارة . وفيه يدرس اللسان العربي ، وله معلمون من نصارى الشام يهاجرون إليها رغبة في كثرة المرتبات ، وهذا يدل على أن فرنسا تهتم كل الاهتمام برواج تجارتها في البلاد العربية ورعاية منافعها بهذا الشأن .

وأهم الملاهي التي عندهم : الملهي الذي يسمونه (سيرك) (20) وهو محل تلعب فيه الخيل . وقد رأيت من التنظيم وحسن تعليم الخيل ما يذهل الناظر حتى ان الفرس يحسن الرقص جدا ويخيل للمتأمل أن ذوقه للموسيقى لا يخالف ذوق الانسان الا بكون هذا ذوقه طبيعي في غالب الأشخاص والآخر ذوقه كسبي . وهناك تظهر اثار التطبع وإنها لتضمحل بسهولة وهي أن الحركات المعتدلة المشاهدة من الفرس في مثل هذا المقام ليست صادرة من تلقاء نفس الفرس وحده بل لا بد له من محرك يوقظه لما يلزم من الحركات بضربات مخصوصة وهو الراكب أو المعلم إذا كان الفرس غير مركوب . فلو فرضنا أن جاهلا بتلك الحركات والتعليمات ركب الفرس ما أتى بتلك الألعاب . وقد ترتفع أثمان هذه الخيل بحسب النسل كعادة العرب (بالشرق) المحفوظة بينهم إلى هذا الوقت . ويجعلون لكل فرس مشهور عقدا يذكرون فيه الأصل الذي ينتهي إليه . وقيمة الدخول إلى السيرك من فرنك إلى خمسة فرنكات . والعادة عندهم تعطيل تلك الألعاب في أيام الشتاء وحينئذ يتسلى السيرك بالتياترو (21) .

وسكان هذا البلد لهم اختلاط عظيم بالطلليانيين ، ويفهم من تزاوج الطليانيين إلى هذا البلد أن أعظم تجارتهم هي الخدمة المدنية بأن ترسل مر

(19) يقصد مدارس ومعاهد وهو استعمال عامي تونس .

(20) سيرك : Cirque

(21) تياترو : théâtre

جزرها كجزيرة (سيسيليا) ومن جنوب إيطاليا وغيرهما أولئك العاجزين عن التكسب في أوطانهم لكثرتهم فيها إلى أقطار أوروبا . وقد بلغ ذلك في هذا البلد إلى أن أقلق عدد المتزاحمين أفكار المواطنين فإن عدتهم تبلغ إلى أربعين ألفا ، وإنهم ليزاحمون المواطنين على الخدمات البدنية حتى أن الأمر قد يفضي إلى جدال وتناوش بين الجنسين . ومما زاد رغبة الاعتناء بهم وعداوة الفقراء الفرنسيين لهم أن الخادم الفرنسي لا يقنع بثلاثة فرنكات في اليوم ، وأن الإيطالي يرضيه النصف من ذلك فبالطبع أن أرباب المعامل وأصحاب البناء والأشغال الكثيرة يقدمون استخدام الإيطالياني على بني وطنهم . وأولئك الطليانيون يسكنون في محل مخصوص بهم معنون بأسمائهم . ومساكنهم قذرة فهم مضرون لأهل البلد من جهتي التزاحم وجلب الأوساخ .

وأقمنا بها يومين وكانت اقامتنا في أوتيل قريب من (كورس بونا بارت) وفي الساعة الثامنة من يوم 29 ذي الحجة سافرنا منها إلى (بورديو) . والطريق من مرسيليا إلى (بورديو) مسير اثنتي عشرة ساعة بسير طريق سكة الحديد وهو يقطع في كل ساعة سبعين ميلا .

والمحطات عديدة وأغلبها على مدن وقرى عامرة كثيرة المسافرين والبضائع . وأقل المحطات انتظاما يوجد فيها أوتيلات ولوكندات (22) تكفي لمبيت المسافرين وراحتهم في المطاعم والمشارب ، إلا أن الأسعار فيها مرتفعة بالنسبة لمراكزها . ومما يشوق خاطر ويروق الناظر إحاطة كافة سكة الحديد بالأشجار الظليلة من الجانبين بحيث لا يكاد الناظر يتمكن من الاحداق إليها مع جسامتها لشدة الحركة والسير فتتمرّ مرّ السحاب وتختطف الأبصار اختطاف البروق ، كل ذلك دلالة على نمو العمران والترقي في بلاد فرنسا .

ويوجد في أثناء الطريق بعض جبال اخترقها يد الصناعة بالقوة الفعالة ، فمررنا من عدة ثقوب (23) أكبرها ما يستمر فيه سير القطار مقدار ثمانين أو تسع دقائق ، وعليه فتكون مساحته أكثر من عشرة أميال . وأكثر الأراضي التي

22. لوكندا (طنجة) بعض فندق صغير لا يواء المسافرين

23. بعض نفق ج الذي وهو ممر في الأرض له مخرج إلى مكان معهود ومنه نفق السكة الحديدية

مررنا عليها من هذا الطريق أراض فلاحية ، وأكثر أشجارها كروم العنب وهو من أعظم متاجر ذلك القطر . ولما وصلنا إلى (بورديو) ركبنا في فابور آخر وقصدنا مدينة (ايرون) .

ومدينة (بورديو) هذه وإن لم نتجول فيها إلا أننا نظرنا ما لاح لنا منها فإذا هي مدينة عامرة ، لكنها دون مرسيليا جسامه وتجارة . وهي على الجنوب الغربي من باريس وشمال (ايرون) ، كانت مدة السير ست ساعات ، وحال الطريق تنظيما مثل الذي سبق .

و« ايرون » هذه أول مدينة من مدن إسبانيا على حدود فرنسا فابتنا لما قربنا منها وقف بنا الفابور على واد فوجدنا محطة إسبنيولية فركبنا الرتل الاسبنيولي ودخلنا إلى (ايرون) وكان في المحطتين المذكورتين حرس وعساكر وما يلزم من رجال الحكومة من قبل كل من الدولتين . ومدة المسير من هذه المحطة إلى المدينة كانت عشر دقائق تقريبا . والحد الفاصل بين الحكومتين هو تلك المدينة . وكان وصولنا إليها في الساعة الواحدة بعد الزوال من غرة المحرم سنة 1305 ، ولم ننزل بها بل استمر بنا الفابور إلى مدينة (مدريد) فوصلناها بعد خمس عشرة ساعة تقريبا ، ويقطع القطر في كل ساعة منها خمسين ميلا بخلاف سكة الحديد بفرنسا وذلك لموانع طبيعية وهي كثرة الجبال المرتفعة والأودية المنخفضة وانحناءات الطريق فاننا قد مررنا من خمسة وثلاثين ثقباً بين (ايرون) و (مدريد) . أقل تلك الثقوب يعبره الرتل في خمس دقائق ، وأعظمها ما يعبره في عشرين دقيقة وهي مسافة عظيمة تحت الجبال ذات خطر على الركاب والقاطرات. فإن من المشهور عندهم الذي تلقيناه بالتواتر عن الرجال العارفين منهم أن جماعات من الأشقياء يتفقون على توريط فيأتون بالسلاح والعدد العديد إلى تلك الثقوب العظيمة ويلقون أحجاراً ضخمة على قضبان الحديد أو يقتلعون تلك القضبان نفسها حتى إذا مرّ الرتل صادم تلك الأحجار أو غاص في الأرض فيقف وحينئذ يهجمون على الركاب فيسلبونهم ويقتلون من يمتنع منهم من التجرد . والحكومة المحلية تحاول منع ذلك بالاسباب الفعالة .

والطريق في تلك الجهات ممتد بين أراض فلاحية قليلة رت حصص

مترا ، ثم انتهيت إلى طريق آخر لا تكاد العربية الواحدة تمر منه . وهي كلها منورة بالأنوار الغازية وليس فيها شيء من الآثار العربية . أما أهاليها فعلى غاية من اللطف والبشاشة مع الأجانب إلا أن الفقراء فيها كثيرون جدا وإذا وجدوا أجنبيا أحاطوا به وربما منعوه من المرور ، وحالتهم سيئة جدا ، ومن الغريب أن الأوروبيين يعيبون علينا لوجود السؤال في بلادنا والشحانون عندهم أشد نكبة وأبرد قلبا مما هم عليه عندنا .

وفي مدة إقامتنا بهاته المدينة ذهبنا إلى المكتبة العمومية . وهي مباحة الدخول لكل من أراد . وتشتمل على عدد عظيم من الكتب بأنواعها . وفيها خمسمائة كتاب عربي انتخبنا منها مقدار سبعة عشر كتابا يأتي تفصيلها في جدولها المخصوص . وهي أربع طبقات ومتسعة جدا إلا أنها مظلمة بحيث لا يكاد المصور الشمسي أن يأخذ رسمها . وتفتح هذه المكتبة ست ساعات في النهار ما عدا يوم الأحد والأعياد . ومديرها معتبر جدا في نظر الحكومة والأهالي . وقد زرناه في دائرته فوجدنا صور علماء إسبانيا المشهورين في محله . يزوره العلماء من كل جانب ويعظمون تلك التماثيل . ومنها صورة (كرستوف كولومب) (30) مكتشف أمريكا .

وفي يوم 3 محرم زرنا دار التحف (الفلبينية) وقد صحبتنا حضرة « نكولاي أفندي » مترجم السفارة العثمانية العلية بأمر حضرة السفير فذهبنا إليها وهي واقعة في طرف المدينة مما يلي شرقها بحوار منزه ايزابيل (31) والدة الملك الذي افتكه المجلس البلدي منها منذ عهد قريب .

ودار التحف هذه كائنة في حديقة مربعة الشكل ، محوطة أطرافها

(30) كرسستوف كولومب : (1451-1506) بخار راند . ولد في جنوى (إيطاليا) وتوفي في إسبانيا مكتشف أمريكا .

انظر : الموسوعة العربية الميسرة ط 1 ص 1511 .

(31) ايزابلا الثانية (1830-1904) ملكة إسبانيا (1833-1868) خلفت أباهما فرديناند السابع حب ونسبه لها ما يديسنا وقد نازعها الملك عمها دون كارلوس فنشبت الحروب بينه وبينها . وبعد أن ماتت عمها فرديناند استس (1846) وكان حكمها مضطربا غير مستقر سيجح لاحرب وفيوم الفين العديدة خلعت سنة 1868 ففصدت فرنسا واقمت بها . ثم نزلت عن دعواها في العرش (1870) لصالح ابنها الملك الفنصو 12 . انظر الموسوعة العربية الميسرة . ص 284

بدرابزان من الخشب ذات أبواب عديدة يدخلها المتنزهون من الأهالي على اختلاف طبقاتهم مجانا ، وتحت باب مخصوص موصل لدار التحف يجب على الداخل فيه أن يدفع قيمة زهيدة تساوي نصف فرنك ويأخذ سكرة من الباب . فدخلنا من تلك الباب ودفعنا القيمة المقررة ومشينا في طريق مستقيم بين الأشجار مقداره 20 مترا ودخلنا إلى دار التحف . وهي عبارة عن دار مربعة الشكل ذات حجرات متعددة متقنة النظام والبنيان تختص كل حجرة منها بنوع من التحف وكلها مبنية بالأخشاب الطبيعية . فدخلنا جميعها وهي فوق الثلاثين وكل ما فيها من تحف جزائر (فيليبين) التي هي إحدى مستعمرات إسبانيا في أستراليا (32) وأكثر أهاليها مسلمون .

وبينما نحن نتجول بها تلاقينا مع جناب ناظر معارف إسبانيا ومعه وزير الخارجية ووزير المستعمرات (ومسيوكيستلار) رئيس جمهورية إسبانيا قبل استيلاء (الفنص) الثاني عشر (33) ، فقدمنا إليهم حضرة الترجمان وعرف كلانا بالآخر فلاطفونا كل الملاطفة ، وسألونا عن أحوالنا وأمورنا وكل منهم أثنى على السلطان المعظم من تعهده هذه الآثار التي خلفها المتقدمون للمتأخرين . فدارت بيننا محاورة أدبية برهة من الزمان . ووزير المستعمرات هذا هو من مشاهير علماء إسبانيا وشعرائهم المجيدين .

أما « كيستلار » فإنه قد نال من عموم المجتمعات العلمية في أوروبا أرفع نياشينها . وله باع طويل ، واطلاع عظيم في جميع العلوم لا سيما التاريخ والجغرافيا والانشاء والشعر ، وله منزلة عالية في فن القصص والروايات الأدبية ، وله مكانة عامة عند كبراء إسبانيا حتى أنهم يلقبونه بالخطيب العام ، لسمو اقتداره في الخطب . وهو رئيس أحزاب الجمهوريين وعضو منهم في مجلس الأمة وهو مضر جدا بالسياسة الملوكية ، ملتهب بالفكر ، يريد بعلمه واقتداره اللساني أن يبدد شوكة الملك ويؤيد الجمهورية بما يسلكه من التدرجات السياسية .

(32) الفلبين : جمهورية بجنوب شرقى اسيا مساحتها حوالى 297 410 كم2 . عبارة عن أرخبيل يشتمل على 7000 جزيرة . غزاها الاسبان سنة 1564 .

(33) الفنص 12 (1857-1885) ملك إسبانيا (1870-1885) ابن ايزابلا الثانية . عرش في المنفى (1868-1875) خلال الثورة ايكارلية . نوذي به منكا 1874 . وعاد في مدريد 1875 . أعاد النظام . انظر الموسوعة العربية . ص 204 .

ثم ان حضرته أولئك الوزراء عرفونا بمتاحف جزائر (فليبين) العام وكان قد حضر إلى مدريد من بعض أيام قلائل وجاء معهم للتجول في المتحف . والغريب أنهم لما عرفونا به قالوا لنا : إنه يعرف اللغة العربية المستعملة في جزائر (فليبين) فلما تكلمنا معه تكلم بكلام لا ندري ما هو ، يزعم هو أيضا أنه عربي وليس من العربية في شيء . ودار الكلام بيني وبينه بانفرنسوية فأخبرني أن هذه اللغة هي لغة المسلمين في (فليبين) وأنه يعتقد أنها عربية . وأردت أن أسأله عن أحوال القوم هناك فأخبرني أن جميع ذلك يعلم من هذا المتحف .

ثم جلنا الحجر المذكورة ، فرأينا أشياء كثيرة وجميعها من أراضي (فليبين) استحضرتها الحكومة وجمعتها في هذا المتحف . وهذه الآثار هي على أقسام عديدة : أجسام جميع الطيور والوحوش والحيوانات والهوام والدواب مصبرة بإقية على حالها . والصنائع ، ومن ذلك رجال ونساء من أهالي تلك الجزائر يجلسون ويجلسن في حجر مخصصة للفرجة عليهم وهم مربوطو القامة ، لونهم يميل إلى لون الذهب وشعورهم محمرة تميل إلى الجعودة إلا أنها فيهم أقل من السودانيين ، وملابسهم التي رأيتهم بها ملابس إفرنجية لكن لا أدري أتلك عادتهم في بلادهم أم الأسبنيوليون ألزموهم بلبسها ، فإن كان الأول كان بعيدا وإن كان الثاني كان عجيبا . فإن مثل هذا المتحف يجب أن تراعى فيه سمات القوم اللهم إلا أن يكون ثمة موجب آخر .

أما الطيور التي رأيتها فإني ما أعهد أمثالها فيما رأيت من البلاد ومنها جارح ليلي . وأما الوحوش فقد رأيت منها ما أعده مثل بقر الوحش وغير ذلك . وأما الهوام فقد رأيت أنواعا من الثعابين منها ما يقتدر أن يبلغ الهر . [!] .

ثم خرجنا من المتحف للتفرج على قصر البلور وهو كائن في نفس الحديقة على مسافة نحو العشرين ذراعا كل بنيانه وسقوفه وجميع ما فيه من زينة إلا أنه غير تام البناء ولذلك لم نتمكن من الصعود إليه . ومن المقرر عندهم أنه سيتم على ثلاث طبقات ويتخذ منزها عموميا .

وفي الرابع من محرم ذهبنا إلى ميدان الثيران مع حضرة نسيم وترجمانه ، وتفرجنا على ما كان هناك من الألعاب العجيبة والاحول الغريبة . ولما كان أهل الميدان وألعابه من أهم ما يذكر عن مدريد فقد وح علينا أن تأتي هنا على ما يشمل بيان كفيته فنقول :

ميدان الثيران في مدريد

هذا الميدان كائن في وسط المدينة وهو على شكل دائرة محاطة بدرايزان (34) من خشب . يجلس المتفرجون بأربع طبقات على الهبة المعروفة (بأنفيتياتر) (35) . فجلسنا بالطبقة الأولى وكان عموم المتفرجين نحو العشرين ألفا على اختلاف الطبقات والمراتب إناثا وذكورا .

وكيفية اللعب أن يدخل إلى الميدان رجال من عشرة إلى خمسة عشر وهم ينقسمون إلى أربعة أقسام وكل منهم متدرع :

قسم بأيديهم قراطيس حمر يستقبلون بها الثور ليذهلوه لأن من عادة ثور الوحشي أن يذهل من رؤية اللون الأحمر كما يذهل الأسد من النار والفيل من الديك .

وقسم بأيديهم خرق قد نسجت فيها أنصل حادة شديدة التأثير فإذا هجم الثور على أحدهم استقبله صربا على عنقه أو ظهره فيؤلمه فيضطر لتأخير عنه .

وقسم يركبون الخيل وبأيديهم رماح يطعنون بها وربما أصاب الثور الفرس فيرفعه على قرونيه ثم يلقي به وبفارسه إلى الأرض . وفي الأغلب أن الفارس لا يصيبه من ذلك شيء لكونه متدربا على هاته الأعمال وفي غاية الخفة بحيث إن الثور متى رفع الفرس على قرنيه وأراد أن يلقي به يثب

(34) الدرايزان : في الفارسية : دريزين بفتح الدال وسكون الراء وفتح الباء ويرى احمد عمر بك في « المحكم » في أصول الكلمات العامة أنها من اليونانية . ونرى الحاجز .

انظر : د. احمد السعيد سليمان ، ناصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخول ، القاهرة ، 1979 ، ص 96 .

(35) Amphitheatre : مرسح وهو مكان معز لتتمثيل أو التمثيل أو التمثيل أو التمثيل . ج . مرسح .

فارسه الى الأرض بدون أن يصيبه أدنى ضرر ؛ غير أن الخيول التي يستعملونها في هاته الميادين خيول متوسطة ضنا بجيادها وأثمانها .

والقسم الرابع بأيديهم سيوف مسلطة بهجمون بها على الثور أو يدافعون بها عند الحاجة .

ويشترط على هاته الأقسام التعاون على قتل الثور بالصفة القانونية عندهم في عرفهم وهي أن يقتل من نحره طعنا بالرمح أو ضربا بالسيف . ولا يجوز قتلهم بغير هاته الصفة مطلقا . حتى أن الذي يقتله بكيفية أخرى يجازى بالسجن والغرامة . وتلك من نصوص قوانينهم المرعية . ولكل من قتل ثورا خمسة آلاف فرنك . وفي نظير ذلك لا تكون الحكومة ولا الجمعية مسؤولة عن دم أحد المبارزين إذا قتله الثور .

ومن القواعد عندهم أن أولئك المبارزين يذهبون في صبيحة اليوم أولا الى الكنيسة فيستغفر لهم القسيسون ويلقنونهم الكلمات الدينية ويدعون لهم بالنصر على الثيران ثم يأتون إلى الميدان . ويحضر هنالك مكاتبو جرائد الثيران وهي جرائد متعددة في مدريد لا تبحث إلا فيما يتعلق بأحوال هذه المباراة وكيفية جريانها ، وأن المكاتبين المذكورين يحضرون في أثناء اللعب وينقلون ما يرون في وقته وساعته ويرسلونه إلى إدارات جرائدهم بغاية السرعة بحيث إن المتفرجين لا يخرجون من هذا الملعب إلا وقد انتشرت جرائد . ويبيع من عمومها آلاف كثيرة في ذلك اليوم ؛ لكن أخبرني كثير ممن لقيت أن لهم عادات واصطلاحات مخصوصة لهذه المباراة يتوقف علمها على زمن مديد حتى أن الانسان الأجنبي لا يمكنه أن يعرف مستعملات تلك الجرائد إلا بعد معرفة العرف والاصطلاح الخاص ولو كان عالما بلسان القوم . فإذا حضر المتفرجون والمكاتبون والمبارزون على الصورة التي نرى حيا منها ، فصلت سائبا حياء بالثور من باب مخصوص . فإذا دخل الى الساحة ، شتمه المبارزين في وسطها يشتد غضبه ويهجم عليهم هجوم الأسد على شدة ذلك . ويحور في بعض الأحيان خوارا هائلا فيفرون من بين يديه من شدة ما يخطرون من فوق الدرايزان حتى تسكن ثورة الثور ثم يعودون منه . كل قسم شغل بأعماله . وهكذا يستمر الكفاح بينهم وبينه حتى يقتل .

وفي اليوم الذي تفرجنا فيه لم يمت أحد من الأدميين ولكن كمرت ساق أحدهم مع كونه مدريا بالحديث ومات اثنا عشر فرسا وأربعة خيول . وحصل ثلث عشر هذا . وهذه المباراة تكون هكذا في كل يوم تحت إشراف هذه والجمعة أيام الربيع والصيف وأول الخريف حيث تكون الحرارة شديدة في النظر الأنسب إلى . ويكثر الثور في هاته الحظوظ عليه اليوم .

فصل الشتاء فتعطل ألعاب الثيران لضعفها وتستبدل بأنواع التباثروات . وهذه الميادين والمبارزات لا تختص بمدريد فقط بل هي من القواعد المقررة في مدينة (برشلونة) وطلليطلة وأشبيلية وبلنسية وقرطبة وغرناطة وغيرها من مدن إسبانيا وقصبتها الكبيرة بل إن هذه الألعاب قد أثرت في أهالي جنوب (فرنسا) القاطنين بحدود (إسبانيا) واشترأبت له الأهالي . ونظرت الحكومة الفرنسية إلى سريان هذا الداء في أهاليها فخشيت من تعميمه فقررت منعه منعاً كلياً في بلادها ، وجعلته من الجرائم والجنح القانونية ومع ذلك لم تستطع منعه . ولم يزل أهل الحدود في فرنسا يستعملون هذه المبارزات ويستحضرون إليها من يلزم من مبارزي الاسبانيوليين في كل عام وهذه المباراة جارية جريانا كليا كذلك في حكومة (البرتغال) .

ومما استفدته عن أحوال هذه الثيران أنها تربي في دوائر مخصوصة ورعاة مكلفين مدربين لا تنقاد إلا لهم حتى أن الثور العظيم الذي يندعش عند رؤيته المتفرجون فضلا عن المناجزين يذل ويخضع لرأيه في أشد ثورة الغضب ، وذلك باثار التربية والتعود .

ومن الغريب أن الثور إذا تحلق القلبة ويصير في مقاومة الحماريين واضمحلت قواه تأثر تأثرا شديدا وجرت دموعه كما يبكي الانسان . وهو دليل على التأثيرات القلبية عند الحيوان . ومنذ سنين جرت مكافحة في ميدان (بلنسية) بين الثور وبين الأسد فقتل الثور الأسد ثم سقط عليه ثم فقتله كذلك . وقد أخبرني بهذا قنصل الدولة العلية بالبلد المذكور . ومما بلغ من التواتر عندهم أن هذا الثور لا يغلبه في الكفاح من الحيوانات إلا نوع (البلدق) (36) من الكلاب لأنه دائما يحارب الثور من خلفه فيضطر إلى الفرار .

(36) البلدق : Beldug : كلب اقطم مبسط الانف .

ولقد سألت بعض الناس عن كيفية اهتمام الأهالي بهذا اللعب واستعظمت تهافت الفقراء على حضور الملعب فأجابني بأن الفقير إذا لم يجد من الاستطاعة شيئا باع قميصه ودفع القيمة للدخول والتفرج ، وأن الحكومة لو أرادت أن تمنع الأهالي من التفرج أو منع وجود هذه الألعاب لقامت ثورة عمومية في إسبانيا .

وللمبارزين احترام عظيم بين الأهالي حتى بلغني أنهم يجالسون الكبراء ويخالطون الوزراء . واستدلت على صحة ذلك بما شاهدته من العربات التي ركبوها عند خروجهم من الميدان وإقبال الأهالي عليهم .

ولقد سرى الميل إلى هذا اللعب من الأصاغر إلى الأكابر حتى صارت من عادات الكبراء أن يحتفلوا باتخاذ ميادين خاصة لمبارزة الثيران ، وتجتمع العائلات الكبرى وتتخذ ملعبا يبارز فيه أفرادها الثيران ويدعى إلى مشاهدته جم غفير من الأمثال والأقران ومن عاداتهم في الميادين الخاصة أن بعض العظماء يقدم أوراقا مالية تبلغ ألفي فرنك فصاعدا إلى من يختار من المبرزين ليخطب بمديحه خطبة على الجمعية الحاضرة ويعدون ذلك فخرا ومآثرة بينهم .

ونورد هنا ملاحظة لا تخلو من فائدة وهي أن هذه الألعاب قد أثرت في أخلاق الأسبانيوليين شدة وحماسة لتعودهم دائما على مشاهدة الدماء وسفكها واستهانة الخطوب وارتكابها ، إذ ينشأ الأسبانيولي على حضور تلك الميادين ثلاث مرات في الأسبوع . ويرى المقاتلات الشديدة وتهافت الناس على هذا الأمر الفظيع فتعتاد نفسه على مقاتلة أمثالها ، ثم يصير لها ارتياح وميل إلى تقليد أربابها . وهذا أمر عام في الإناث والذكور . ولهذا لا تكاد إسبانيا تخلو من الشغب والقتال لتعود النفس فيها على الاستهانة بالأمر . وهناك أمر آخر وهو أن هذه الألعاب تشغل ألوف مولفة عن الأعمال ثلاث مرات في كل أسبوع . ولا يخفى ما يؤثره هذا التعطيل في الأحوال المدنية بأقسامها مادة ومعنى ، إذ يتعطل الصانع عن صناعته والتاجر عن تجارته والمحترف عن حرفته .

ما نلاحظه في الأدهان فيه مهم جدا ، إذ بمنعها في الأعمال الراهية من الأعمال العقلية في سماع العلم والمعارف . ولعل هذا هو من الأسباب التي حطت

درجة الأسبانيوليين في النظر المدني والمجتمعات العلمية عن أوروبا . وهو الذي منعها من استكمال دواعي الثروة العمومية ؛ فإنك إذا حسبت مدة التعطيل بهذه الألعاب في مدة ستة أشهر وجدتتها اثنين وسبعين يوما ، وإذا أضفت إليها أربعا وعشرين أحدا كانت ستة وتسعين يوما في كل سنة وثمانين ما عدا الأعياد الدينية التي لا تقل في تلك المدة عن أربع وعشرين أيضا ، وعلى هذا لا يتفرغ الأهالي لأعمالهم في مدة الربيع والصيف إلا مستين يوما وهو عبء عظيم على كاهل الأمة مضيع من ثروتها الطبيعية والصناعية .

هذا فضلا عما تفقده الأمة من الخيل والرجال ونفس الثيران ، وما يتبع ذلك من المصاريف والأتعاب في تربيتها وتدريبها فان ذلك مضر بالاعتماد المدني مهما كانت الحال .

نعم إن إسبانيا تستفيد من ذلك شيئا واحدا في نظير هذه الخسائر كلها وهو تربية الشجاعة والاقدام . ومن المعلوم أن الشجاعة والاقدام أيضا لا يحسبان إلا إذا استعملتهما قوة الحكمة بدون إفراط ولا تفريط .

ولما كانت مأموريتنا الاطلاع على الكتب العربية في إسبانيا عرضنا على حضرة الشهم الهمام « طرخان باي » التماس المعاونة فأشار علينا بالذهاب إلى مدينة (الاسكريال) أولا ؛ ولكن لما كانت مكتبتها مكتبة خاصة يتوقف الدخول إليها على صدور أمر ملوكي استحصل لنا أمرا من جلالة الملكة برخص للمأمورية الاطلاع على الكتب العربية الموجودة هناك .

وفي 7 من المحرم أرفق معنا حضرة ترجمان السفارة ومافرنا من مترجم على طريق السكة الحديدية إلى الاسكريال .

الاسكريال

وصلنا إليها في الساعة الحادية عشرة صباحا فنزلنا إلى المحطة . وهي محطة لطيفة بعيدة عن قصبة البلد بمسافة ميل . وفيها بعض العساكر المسماة عندهم قارد ناسيونال (37) أي الحرس الأهلى . وهي من قواعد اسبانيا

العمومية في كافة المحطات . وبعد ما نزلنا لم نجد للركوب إلا عربات تشبه عربات الترامواي إلا أنها أصغر منها ، وتركب من خلف بجرها زوج من الخيل وليست على شيء من الانتظام ومخراها ليس على سكة حديدية ، حرسها بحلف . وعلى حافى الطريق أسفار طفلة كسره ، والآراسى التي لها هائلت فيها نو . ما من الزراعة والبقول . ودخلنا القصة وإذا سوارعها . سانيها مسظمة اسطاما نوعا حتى وصلنا الى أهم أوندلات البلد . وعندما اسرحنا به قللا ذهبا الى أسقف كنيسة الاسكربال فدخلنا الى القصر المشهور بقصر (فيليب الثانى) وتلاقينا معه فرحب بنا . واطعه الرحمان امر حلاة الملكة فأحاب بالقبول ورخص لنا فى مطالعة الكتب . ثم ان الرحمان استأن لنا فى التفرح على القصر من مدره الخاص وحصر السنا فى حجرة الاسقف وتلاقينا معه ثم خرجنا جميعا للتجول فيه .

هذا القصر أسسه الملك فيليب الثانى ابن القصر شارلكان الشهير منذ أكثر من ثلاثمائة سنة وهو قصر عظيم هائل ذو أربع طبقات وفيه من بدائع الصنع والاتقان ما جعله محلا لقُدوم كثير من سواحى أوروبا وعلمائها فهم قدون عليه فى كل وقت ويكتبون عنه مشهوداتهم (38) حتى صار التعبير عنه عبارة عن تحصيل الحاصل . وهو الذي أوجب الشهرة التامة لقصة الأسكربال على صغر حجمها وقلة أهميتها فى نظر اسبانيا فضلا عن أوروبا . وفى جدران القصر المذكور رسم غالب محاربات دولة اسبانيا سواء كانت مع العرب أو مع غيرهم من الدول حتى أنى رأيت يعنى رسم المحاربة المشهورة التى وقعت فى حليج (اللينت) بين الدولة العلية واسبانيا لكن هذه القلاع مرسومة بكيفية لا تكاد توصف الا بلسان المشاهدة .

مما يجب ذكره أيضا الحجرتان اللتان بناهما فيه الملك (فيليب) المذكور فى كل واحدة منهما تكلفت فى زمانه بخمسة ملايين فرنك . وهما حجرتان مستطيلتان ، أبوابهما وحيطانهما وسقفهما مذهبة مزينة بالنقش وحلفات الأبواب والمفاتيح من الذهب والفضة .

ومن ذلك قاعة الطعام فإن فيها مائدة تسع مائة وخمسين نفرا وهى فى

غاية الاتقان أيضا . ومن ذلك حجرة الملك الخاصة التى كان يستقبل فيها السفراء ، وهى حجرة عادية . وفيها مكتبته بأدوات الكتابة وكراسى السفراء كلها من الاخشاب وكذلك كرسيه . وفى داخل هذه الحجرة حجرة نومه وهى صغيرة جدا لا تكفى إلا لسرير واحد ، وفيها سريرته الذي كان ينام عليه . فإذا رأيت القصر وما تحته من مظاهر العظمة رأيت ملكا مهابا . وإذا دخلت إلى حجرة النوم رأيت (فيليب الثانى) كان يدرس دروس الزهد على (ديوجين) (39) .

وأما الكنيسة فإنها من اثاره أيضا . تحارب مع حكومة فرنسا فى حجة البلجيك ونذر إن ظفر فى حربه ببناء كنيسة عظيمة ، فغلبها فبناها وصرف عليها أموالا عظيمة بدلالة إتقان بنيانها . وقد اتخذت هذه الكنيسة مقبرة لملوك اسبانيا من عهد شارلكان المذكور إلى الملك المتوفى منذ سنتين .

ثم مكثنا عشرين يوما نتصفح الكتب فى المكتبة مدة ست ساعات فى كل يوم ما عدا يوم الأحد . وهذه المكتبة وإن كانت فى ذات القصر إلا أنها تحت نظر الأسقف وكافة خدمها من القسيسين وهى متقنة جدا وفيها 84000 مجلدا منها ألفان وكسور كتب عربية انتخبت منها 408 كتابا فانظر إلى التحول فى اخر الرحلة .

ومدة اقامتنا بالاسكربال وقع اجتماع المؤتمر العلمى بالكنيسة وقد حضره أكابر علماء أوروبا وعددهم 250 نفرا . وبعدما فطر العلماء قام رئيس كل شعب وألقى خطابا علميا أدبيا سياسيا ثم افترقوا . وهذا المؤتمر يقع مرة فى السنة بالكنيسة باستدعاء دولة إسبانيا للعلماء الأجانب على اختلاف الأجناس .

مطالعة مهمة

يتبادر إلى كثير من الأذهان أن الكتب العربية الموحودة فى هذه المكتبة من مخلفات أهل الأندلس بل إن كثيرا من السواحى لك هذا الموضع مكتبة من

(39) ديوجين : Diogenes (412-323 ق.م) فيلسوف يونانى
الى البساطة . انظر الموسوعة العربية ، 840 .
الكنييين . عثر فى انشادهم

رحلته . وليس الأمر كذلك فقد أظهر لي التحري والتحقيق وكثرة المحاورة
ونمكة مع أرباب الوقوف والاطلاع أن الأسبانيوليين لما ملكوا الأندلس أشار
عليهم رؤساء الأديان بحرق الكتب الإسلامية لا سيما الدينية ، فكانوا كلما
تمكنوا من بلاد أحرقوا كتبها إلا ما بقي عند بعض الأفراد . وأن هذه الكتب هي
من كتب زيدان أمير المغرب (40) كان اشتراها من المشرق وبينما مأموره
قد قدموا بها إذ فاجأهم سفن اسبانيا الحربية قريبا من بوغازسبتة (جبل
طارق) فغلبتهم وغصت هذه الكتب ، وأحضروها الي الملك (فيليب) فأنشأ
هذه المكتبة ووضعها فيها ، فهي في التحقيق من كتب حكومة مراكش لا
الأندلس . والذي يدل على صحة ما ذهبت اليه ما شاهدته مكتوبا على أغلب
الكتب من أنها ملك الأمير زيدان المذكور .

ومما أطلعنا عليه القسيسون أنواعا من النقود الإسلامية منها ملوك
الأندلس إلا أنني لم أستطع قراءتها . ومنها نقود من الفضة مكتوب في الوجه
الأول ثلاثة أسطر الأول : لا إله إلا الله ، والثاني : الأمر كله لله ،
والثالث : لا قدرة إلا بالله . وفي الوجه الثاني أيضا الأول : الله ربنا ، والثاني :
ومحمد رسولنا ، والثالث : والهادي إمامنا . والظاهر أن هذه النقود هي من
سكة لحليفة العباسي موسى الهادي (41) إذ ليس في الخلفاء من تلقب باسم
الهادي غيره .

وفي التاسع والعشرين من محرم عدنا منها الى مدريد لأخذ الأوامر
للازمة لعمل سداد واسترحنا مدة وجيزة . وفي غرة صفر توجهنا من مدريد

(40) عبد الملك بن زيدان بن حمد المنصور أبو مروان السعدي . (1030 هـ - 1631 م) من
ملوك دولة الأشراف السعديين بمراكش . تولى بعد وفاة أبيه سنة 1037 هـ وحاول أن يضبط
ملك فدار عليه خوان له . أحدهما الوليد والثاني محمد (المعروف بالشيوخ) فهزمهما
وسكنى غرناطة . كان في بينهما من الأخلاق والعدة . وقتله بعض أهل مراكش بأغراء
تؤتيه . وقيل : قتله الفوج وهو مسكران . وكان فاسد السيرة والمريّة . انظر : الزركلي ،
الأعلام ، ص 304 ، ج 4 .

(41) موسى الهادي 144 - 170 هـ . 761 - 786 م) من خلفاء الدولة العباسية ببغداد . تولى
بعد وفاة أخيه سنة 144 هـ . وكان غلاما حرجيا فقام أخوه الرشيد ببيعته . واستندت أمه
نعمان بالأمير . ورد خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر . فلم
يملكه مدة . فمات حوائها . بلقته فخلقه . ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر . انظر
الزركلي ، الأعلام ، ص 280 ، ج 8 .

مع حضرة الشهم الهمام طرخان باي الى طليطلة وهي على مسافة ثلاث
ساعات من مدريد بسير (الشمنديفير) (42) والطرق خصبة ذات مرارح
بتخللها بعض الربوات .

طليطلة

هي مدينة كائنة على ربوة يحيط بها بعض المزروعات والغابات
والربوات . وهي في الجنوب الغربي من مدريد . ويشقها نهر (التاج) (43) ،
وهو مختلف العرض بين العشر والأربعين مترا إلا أنه قليل العمق لا يساعد
على سير السفن ما عدا القوارب الصغيرة المعدة لصيد الأسماك . وعليه جسر
يمر عليه الداخلون الى البلد . وأمام القطرة باب عديم لم أر عليه شئ من
الآثار يمكن الاستدلال بها على الباب . وهذا الجسر مبنى بالاحجار العظيمة
محكمة البنيان يبلغ طولها إلى 25 مترا وعرضها 4 امتار وهي من آثار
العرب الباقية . أما الباب المذكور فقد سألت عنه كثيرا من الأهالي فعضهم
يقول من آثار العرب وبعضهم يقول من آثار الرومان .

وهذه المدينة ضيقة الأزقة أكثر بنائها غير مرتفع وطرفها ليست منظمة
حتى أن الاحجار التي كانت مرصوفة بها في عهد العرب لم يبق منها إلا
القليل المضمحل ولم يبق الأسبانيوليون بها . وليس فيها من آثار العرب إلا
الجسر المذكور والباب المختلف في بنائه ، وحصل على ربوة كان أمام
الجسر قد انهدم بعضه ، ومسجد جعل بيعة لليهود عند استيلاء الأسبانيوليين
على طليطلة ، ثم جعل كنيسة للنصارى مدة ثم حفظه الله فعاد إلى حالته

(42) chemin de fer : المسكة الحديدية .

(43) نهر تاجه : يمر في غرب اسبانيا ووسط المرتفعات فيصب في الأندلس . تقع عر مصبه
لبشبونة (1,006 كم) .

انظر : الموسوعة العربية الميسرة : ط 1 ، 479 .

(44) ابن هود : (ت 475 هـ 1082 م) أحمد بن سليمان بن محمد بن هود تميمي تميمي
من ملوك الطوائف بالأندلس . وهو ثاني ملوك آل هود . تولى بمصر سنة 475 هـ
انظر : الزركلي ، الأعلام ، ص 128 ، 129 ، ج 1 .

الأولى وهو الآن يزوره السواحون ثم إننا دخلنا فيه فلم أر شيئا من الكتابة ما سلمنى على الباني ولا على تاريخ البناء . والقصر الذي كان لابن هود (44) على ما أظن ذهبنا إليه للتفرج والزبارة وهو على ربوة مرتفعة يكشف على النهر والنيل ، شامق العلو وقد أصابه الحريق منذ سنة فأتلف كثيرا من مبانيه وقررت حكومة اسبانيا صرف مليونين فرنك لاعادة ما تلف منه إلى ما كان عليه .

وفي صحن هذا القصر تمثال الامبراطور (شارلكان) من نحاس مرتفع على قاعدة من نحاس أيضا مكتوب على إحدى جهات تلك القاعدة باللغة الاسبانيولية : « يجب أن أقيم بإفريقيا أو أدخل مدينة تونس عنوة » وفي الجهة الأخرى خطاب لجنوده : « إذا رأيتم سقوط فرنسي في الحرب لا تلتفتوا إليه وإذا رأيتم هجوم العدو على علمي فحوموا حوله » . وحول التمثال المذكور أربعة مدافع صغار أخبرني بعض الضباط الذين كانوا معنا أن شارلكان أخذها من تونس مدة حربه مع الحفصي . (45) .

وعدة أهالي طليطلة سبعة عشر ألف نفس وكان عددهم أيام العرب مائتي ألف كما صرح به بعض مؤرخي الافرنج .

ثم إننا ذهبنا مع حضرة السفير المشار إليه إلى العامل وأطلعنا على أمر الملك وأمر نظارة المعارف . وكان مصرحا في هذا الأخير بوجود كتب عربية والترخيص لنا في النظر إليها . فأشار العامل علينا بتفقد المكتبات فذهبنا وتحرينا فلم نجد أثرا فيها للكتب العربية وهذا من العجيب . ان نظارة المعارف هنالك تحسن تفقد كتبها وقد سألت قسيسا هو ناظر إحدى المكتبات

(46) الحسن الحفصي : (ت 990 هـ / 1582 م) آخر ملوك الدولة الحفصية بتونس . وأحد اثنين احرم ما فيها (هو ونوره) وكان أخوه (أحمد بن الحسن) قد كاتب الاسبانيين وعرض عليهم مالا يودونه لهم اذا اعانوه على اخراج الترك من تونس . واشترط الاسبانيون أن يشركهم في حكم البلاد . فاتفقوا واعتزل . وخلفه (الحسن) فرضى بشروطهم . وأعانه أسطولهم فدخل تونس . وأحسنه الاسبانيون وهو خضع . واذاقوا أهلها الويلات . وأقبل جيش من القسطنطينية سنة 981 هـ بقيادة لويزر سنان باشا . فنشبت معارك انتهت بظفره ودخوله تونس . فقبض على الحسن الحفصي وعاد به إلى العاصمة العثمانية فأمر السلطان سليم باعتقاله واستمر في سجنه إلى أن مات .

انظر : الزركلي ، الأعلام ، ص 320 - 321 ، ج 6 .

عن سبب فقدان الكتب العربية فأخبرني أن نابليون الأول لما حارب اسبانيا واستولى عليها أخذ أغلب الكتب ونقلها إلى باريس وما بقى منها في المكتبات تناوشته أيدي الغوغاء في أثناء الثورات المتوالية التي حصلت في البلدان فكلما حصلت ثورة انتهبت تلك الكتب وحرق بعضها إلى أن تلاشت بالكلية .

ومما يجب ذكره عن طليطلة معمل الأسلحة البيضاء كالسيوف والخناجر وغيرها فإنه معمل عظيم جدا كان في ظاهر المدينة . ومعمولاته مرغوبة في جميع الأقطار حتى أن الخنجر الذي يكون من معمولات فرنسا إذا كان يساوي فرنكا فإن الخنجر الذي يصنع في هذا المعمل يساوي عشرين فرنكا . والذي بلغني أن لنهر (التاج) المذكور تأثيرا عظيما على الحديد .

وفي الثاني من صفر رجعنا إلى مدريد للسفر منها إلى إشبيلية وذلك لعدم وجود خطوط حديدية بين طليطلة وإشبيلية . وبعدما عدنا إليها أخبرنا ترجمان السفارة أن هناك بعض العلماء من أعضاء المجلس العلمي عندهم كتب عربية فذهبنا إليهم فإذا اثنان منهم قد سافر أحدهما إلى لندرة بمأمورية لا أعلمها ، والثاني إلى تونس وسبب ذهابه إليها هو أن الحكومة بلغها وجود كتاب ألفه بعض العلماء المتقدمين من التونسيين فيما يخص الحروب التي جرت بين شارلكان والحفصيين فعينته مندوبا للمجمع العلمي حتى يطلع على ذلك الكتاب . ووجدنا الثالث فرحب بنا وأرانا مكتبته ووجدنا فيها بعض كتب عربية إلا أنها ليس من الغريب في شيء ، ثم إن هذا الرجل أخبرنا بإمكان وجود كتب عربية في مكتبة (الأكدمي) فذهبنا إلى دائرة هذا المجمع العلمي فرحب بنا أعضاؤه وأكرمونا وبحثنا في المكتبة فلم نجد شيئا من الكتب العربية إلا بعض أوراق اطلعت منها على حجة بيع بعد زمن الاستيلاء بقول فيها : اشترى فلان من فلان على مقتضى شريعة عيسى عليه السلام ... فدلنا ذلك على أن إسبانيا لما دخلت بلاد العرب ألزمت الأهالي بترك الدين قسرا .

ثم أطلعنا العلماء على آثار عتيقة من آثار الرومان والعرب . وفي صفر المجلس صورة الملك شارل الخامس (47) . وهو الذي أسس المجمع العلمي

(46) نابليون الأول : (1769 - 1821) امبراطور الفرنسيين . فتح اسبانيا سنة 1807 . انظر : الموسوعة العربية الميسرة . ط 1 ص 1812 - 1813 .

(47) انظر شارلكان تعليق ص 20

قصر اشيلية

هذا القصر دخلناه وجلسنا فيه ، فإذا هو نزهة للناظرين وعرة للمفكرين .
إذا رأيته استقبلك بالبشر والاستيناس وإذا استخبرته ناداك : « وتلك ... »
نداولها بين الناس . وإذا تذكرت حال الأوائل تمثلت بقول نعل :
[البسيط] :

كانوا بدورا وكنا في منازلهم
نهوى حماهم ونرحو ال نعيمه
قلت شعري الى أي القرى ظعنوا
« فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم »

وهذا القصر كائن وسط بستان عظيم يشتمل على أنواع من الأشجار - ت
الظل والتبر كالتخيل والبريق والليمون وأنواع الزهور والورد . كما قل
[نحتف]

قد يا اخي تر نسد غيلا
 بكر نروص ونماد مملو
 هي راض عائق اليت فيها
 منم عائق نخسر نخسلا
 لا تنم واعند ناسد يوم

وفيه برك وعيران متعدّدة على أحسن ما يكون من تضاد وجمال المنظر ، وعليها مقام ومجالس مثوك نسفة . وساحة تقصر مرصوفة بالمرمر الأبيض ، وهو موصوع على عمد من المرمر . وفيه حرم متعدّد . وجميع الحيطان والسقوف والأبواب والنوافذ مرسومة بآلات تصوير المحكمة ومطلبة بالذهب .

ثم ذهبنا إلى المكتبات فوجدنا فيها الكتب العربية نحو عشرين كتاباً
أحسب أنها دلائل كتب سبلي في الأصول لمخصوص

وفي الثامن من صفر بحر مدائنهم على طرفه
وكان التفرق لها سهولا بعد ذلك من مكنى كصمه ..

المذكور (الكنى) . وهذا هو مجمع التاريخ والجغرافية ، وثمة مجامع علمية لقرى متعددة كمجمع اللغة والطب والعلوم وغير ذلك ، وكل مجمع فى مدريد له شعب فى سائر الولايات ومرجع الجميع لنظارة المعارف .

وفى الخامس من صفر سافرنا من مدريد إلى اشبيلية . ولما كان السفر ليلاً لم أستطع كشف الطريق غير أننى تحققت أن ليس ثمة ثقب فى الحمال . فلما أصبح الصباح رأيت الطريق بخرق مزارع الزيتون وهى كثيرة جداً إلا أن خدمتها قليلة بالنسبة لخدمة الزيتون بتونس فوصلنا إليها فى ست عشرة ساعة .

اشيائية

هي مدينة كسة في جنوب مدريد يحيط بها سيط من الأرض ذو زرع
وحديق وسابن . وبمر بجانبها نهر الوادي الكبير (48) . ولم يزل يسمى
هكذا في كل باللغة الأسبولية . ولعدة حسنة المنظر . لطيفة السيل . ولا
محدور ماضيها ثلاث طبقات أعني حسب لطور العري . ويصل في أن
الأسبوليين قنوا في سياتهم العرب . وأرقها مرصوفة بالاحجار لا أنها
ضيقة وربما تعمر السر لرحيل عرصا في أن واحد بعض الألفة . ويوجد
فيها حدائق مسعة على لطور الحذد . وكلها منورة بالأنوار لغارية . وعدة
فوسها (1) ١٥٠٠ نسمة . وفي وسط المدينة مارة (4٩) عمومية متعددة .
وهي عرة عن نطاق مسعة فيها كسر من السجل يجتمع اليها الناس في
أوقات المسحة .

وما أثار نعرة شافقة بها هي منارة طولها ثلاثون مترا وعرضها
أربعة . وصحن مسجد في صدار مسجد كسبة والنصر .

(48) الوادي الكبير : حواد لكبير بالاسبانية ، طوله حوالي 97 كم . يجري من سيرا دي كازولا نحو الجنوب الغربي عن منطقة ختسة واما بقية المنطقة ونسبة من - يصر في محيط

* محمد - ج متصل لمدة سنة سبته بسند من ١١٦٣-١١٥٤، مسه لمجد
الملك بهاء الله بن علي بن يوسف في حوزة الشريعة بالقدس عام ١٢٠٩ هـ بعد صدور معذرية
الموسوعة العربية . ط ١ ص ٨٧

مكتبة جامعة القاهرة

غرناطة

هذا البلد على الجنوب الغربي من مدريد كان بسهل متسع . يحيط به ربوات مشجرة . وعدد نفوس أهاليها الآن 60.000 نفس ما عدا الخرابات الباقية ولطول البالية التي يشاهدها المتأمل حول البلد وهي تزيد على النصف المعمور منها . وبنائها وهينة شوارعها متقنة غير أن الطرق فيها أغلبها غير مرصوف بالأحجار . والأنوار الغازية فيها قليلة بالنسبة إلى مدريد وغيرها . ولما وصلنا إليها ذهبنا إلى أحد الأوتيلات وهو مخصوص بسواحي الأنكليز الذين يأتون دائما لتبديل الهواء وزيارة الحمراء لما هو معلوم من جودة هواء هذه المدينة .

وفي الغد توجهنا لملاقة العامل وسلمناه رقيم وزير الخارجية ، فرحب بنا ثم كتب أمرا إلى معلم اللغة العربية بغرناطة وأحد أعضاء جمعية العلوم (أكيمي) يأمره أن يلازمنا ويطلعنا على ما يمكن الاطلاع عليه من الكتب العربية . فتلاقينا معه وبدلته بحثنا في المكتبات فلم نجد إلا نحو أربعين كتابا ، انتخبنا منها سبعة ننظر في محلها من الجدول المخصوص .

ثم ذهبنا لزيارة قصر الحمراء وهو من أعظم القصور الأول التي ألفتها الغراء . وأظلتها الخضراء . وهو كائن على ربوة عالية به حصون عظيمة . وله سور يحيط به من جميع جهاته . وهذا السور تحيط به أشجار ظليلة ومياه حارية بواسطة أنابيب الحديد التي مدتها العرب واستجلبت بها المياه من رؤوس تلك الحال . ولها خربير عظيم بحيث يؤثر على من جاورها من سكان ، وربما منع غير المتعود عليه من النوم . وتفصيل الحمراء شيء لا سعه هذا المختصر بل يجب أن يفرد بجزء خصوصي . فإن السواح الذين غنوا لزيارته في كل يوم أزيد من مائة سائح ، وأكثرهم من الأنكليز ، وكل واحد منهم يكتب شيئا أسهب أو أوجز . وزد على هذا ما بين رسائل منشورة ، كتب سياحات مشهورة متداولة بين ذوي العلوم والمعارف في كل الديار . فكنت لا تصح أن أعرض له في هذا المختصر لخروجه عن موضوع الرحلة ، لكن أقول : إن الأفرنج على اختلاف طبقاتهم في العلم وحرصهم على الاقتصاد لا يمكن أن يفتي الرجل منهم وقتا أو يصرف درهما في سياحة

ما لم تعد عليه بفائدة مادية أو معنوية ؛ فتهافتهم على زيارة الحمراء هذه الدرجة يعلن لمن تبصر مقدار أهميتها في العالم المدني ويبين مقدارها لدى المجتمع الصناعي .

ومما يؤيد ما ذكرت أنني شاهدت جملة من المصورين قد اتخذوا لهم مكانا مخصوصا على مقربة من باب لا يشتغلون إلا بتصوير قطاعات من القصر ، كل قطعة تساوي من أربع مائة فرنك إلى خمسمائة وستمائة فرنك . وربما بلغت قيمة القطعة الواحدة إلى ألف فرنك . أما ما يساوي منها دون الأربع مائة فرنك فلا عبرة له وهو نادر الوجود . وهؤلاء المصورون كلهم أولو ثروة وغنى بهذه الأعمال . فليتأمل إلى العلم والصناعة كيف عاش بمجرد تصويرها قوم لم يكونوا لذوبها في حساب وما أحسن أن ينشد هنا :

قول القائل :

فتى عاش في معروفة بعد موته

كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

وقد نشر أحد العلماء الفرنسيين كتابا عظيما ضخما في هذه البلاد وغيرها سماه « تمدن العرب » (50) . طبعه بباريس واستوفى الكلام فيه على قصر الحمراء تحريراً وتصويراً فمن شاء أن يطلع على مقدار أهميته فليراجع ذلك أو ما شاكره . ولم أختر أخذ شيء من الكتب الأفرنجية أو العربية لخروج موضوع الرحلة عن غير المشهودات .

ثم إنني أنقل مجرى الكلام إلى بعض ما رأيت من قصر الحمراء على سبيل الاجمال حتى لا تخلو أسطر رحلتي من هذه الفائدة بالكلية . فأقول : إن قصر الحمراء محاط بسور عظيم كما قدمنا . وبابه باب عظيم يبلغ طوله نحو 15 مترا في عرض خمسة أمتار مبني بالأحجار الضخمة الصماء التي لا تستطيع الأيام بجزءها ، واللبلالي بمرها هدمه ودائرتة جميعها من التمرمر الأبيض الصافي ، وخشب الباب المذكور على ما أظن من الصنوبر ذو

(50) انه يعني دون شك كتاب « حضارة العرب » لغوستاف لوبون وقد ظهر بباريس سنة 1884 . ولوبون من كتاب الغرب الذين انصفوا الحضارة العربية واندنوا بقضتها عشر حضارة الغربية (راجع تعليق ص 13) .

نقوش كثيرة وهو مصراعان عظيمان . فإذا تأملت وجدت لوحا عظيما من
تمرمر في أعلى الباب مكتوبا عليها بالخط الكوفي « أمر ببناء هذا الباب
المسمى بباب الشريعة أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الحجاج
الخزرجي (51) . والكتابة جلية منقوشة جغرافية ولونها أبيض . فإذا دخلت
منه دخلت إلى دهليز أرضه من اللبن (52) وحيطانه من الحجر ، وعلى
الجانبين مراكز السيوف والرماح للحرس الملوكي الخاص .

ثم انك تنتهي بعد جواز الدهليز إلى بطحاء من الأرض ذات ظل وشجر
ومنظر بهيج ، تستقبلك بالوجه الوسيم ، وفيها قصر الحمراء على ما يأتي
بيانه . وأما قصر شارلكان فإنه على شرقية . وهو قصر عظيم أيضا مبني
بالصخور الجسيمة ، منقوش عليها جميع الآلات والأدوات العربية
والاسبانية والآلات الطرب وما شابه ذلك . بناء شارلكان ليضارع به
الحمراء وهو يومئذ ملك اسبانيا واطاليا وقيصر النمسا وألمانيا وعدة ولايات
من أمريكا . وهو الذي حارب « فرنسوا الأول » (53) ملك الفرنسيين
وغلبه ، ثم استعان على الأخذ بالتأثر منه بالسلطان سليمان الثاني (52) . هذا
كنه تبصر له ومع ذلك لم يوفق لتنميم قصره ، بل لم يتم إلى الآن وبقي ناقصا
بما يشهد لملوك الاندلس بكمال الاقتدار على ممر الدهور والأعصار .

ثم إذا تجاوزت البطحاء وقصر شارلكان (55) جزت إلى باب يسمى
« باب السلاطين » ، وهو باب عادي الطول والعرض مبني بالأحجار
والمرمر مكتوب على مواجهته : « باب سلاطين » في لوح من المرمر

(51) لم نهت إلى ترجمته في المراجع المتيسرة .

(52) اللبن واحدته لبنة . واللبن واللبن : المضروب من الطين مربعا للبناء .

(53) فرانسوا شارلكان) امبراطور اسبانيا والنمسا على أيامه أبرمت معاهدة الامتيازات الأجنبية بينه وبين السلطان سليمان القانوني (1516) انظر الموسوعة العربية الميسرة ط 1 ص 1204

(54) سليمان الثاني : السلطان العثماني العشرون (1687 - 1691) على أيامه حدثت الفتن في اسطنبول وغلبت الدولة على أمورها في محاربة النمسا . انظر الموسوعة العربية ط 1 ص 1001

نقل بعض من 11

الأبيض فتجوزه إلى بطحاء ثانية ، على يمينك قصر الحرم . وعنه س
فاصل له باب عظيم طوله نحو عشرين مترا وعرضه نحو ثلاثة أمتار .
وعلى يسارك قصر السفراء الذي كان ملوك غرناطة . عليهم رحمة الله .
يستقبلون فيه سفراء الدول . وله سور فاصل فيه باب عظيم ، وبين
السورين المذكورين حوض عظيم من المرمر الأزرق طوله فوق الثلاثين
مترا ، وعرضه دون العشرة بقليل ، وعمقه نحو المتر فأكثر والماء يصب إليه
بأنابيب الحديد تحيط به أشجار ظليلة إلا أنها حديثة عهد . وفي ذلك الحوض
أسماك المزجان أعلمنا مسيو (سيموني) (56) أنها من نسل الأسماك التي
تركها العرب . وفي مقابلتك سور آخر عظيم محكم البناء ومتقنه . وبكل
جهة من هذه البطحاء قصيدة مكتوبة بالنقش بالخط الكوفي ، نقلت منها ما
استطعت ولم أقدر على استكمالها من تأثير الزمان في بعضها حتى محبت
وهذا ما استطعت نقله :

[الطويل]

تبارك من ولاك أمر عباده
فأولى بك الاسلام فضلا وأنعمنا
ومنها :

فلو خير الاسلام فيما يريده
لما اختار إلا أن تعيش وتسلمنا
ومنها :

وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة
فتحت بابا كان للنصر مهبما
ومنها :

فيا ابن العلى والحلم والبأس والندى
ومن فاق افاق النجوم اذا انتفى
ثم عطفنا على قصر السفراء ودخناه فإذا قاعة كبيرة مربعة الشكل تسمع

كثير من مائة وخمسين نفسا ، شاهقة العلو ، جميع حيطانها من المرمر الأبيض نحت بالاصفر ، والأرض مرصوفة باللبن المطلى الملون . وفي صدر القاعة مجلس مرتفع في طول أربعة أمتار في ارتفاع نصف متر تقريبا . وفي حائتي تلك القاعة حجرتان صغيرتان ، وسقف القاعة قبة مرتفعة محكمة جدا ، وبين منتهى الحيطان ومبتدأ انحناءات القبة طاقات مشيرة على شكل النجوم . مزينة بالبلور الصافي المتين . وكل الحيطان وباطن القبة مزينة بالنقوش البارزة ذات الأشكال العجيبة الدالة على ما كان تتبونه الإسلامية من الاعتقاد الصناعي العظيم ، بحيث أنك إذا تأملت في هذه النقوش حزمت حالا بأن العلم والصناعة بلغتا الدرجة الأولى في بلاد الأندلس . وأن الثروة والعظمة كانتا عندهم في سعة من الزمان ، ولكن الدهر يأتي على كل أثر . على الطلاء الذهبي فأباد جنه وبقى أقله . وهكذا الدهر يأتي على كل أثر . ويبعث مبتدأ كل نعيم بخير . وفي كثير من جهات القاعة مكتوب بالقلم الكوفي البارز هذه العبارات : « لا إله إلا الله » و « لا غالب إلا الله » و الغلبة المتصلة » و « النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المؤمنين » . وهذه العبارات مكررة مرارا في الجدران . وفيها قصائد مكتوبة بخط الكوفي أيضا منقوشة في المرمر نقشًا بارزًا لم يستطع قراءة جميعها لغوها وارتفاع القبة ولاضمحلال بعض الخطوط الغربية .

ولكن أورد ما قدرت على قراءته . من تلك أبيات من قصيدة يقال : إنها من نظم مأمور ببناء قصر الحمراء يقول في مطلعها :

[الطويل]

أبى من المولى الإمام محمد
بأكرم من يأتي ومن كان ماضيا
لست نه حرس ثريا معيضة
وبصبح معتل النواصم راقيا
وهذا ما ملأ أفراسا بخدمة
ومن خدم الأعلى استفاد المعاليا
وكذا من شاء في دراه ترفعت
على عمد بالنور باتت حواليا

ومنها :

بهي من لحد الدهر لست بها
ولم لك في فق السماء حد
بها المرمر المحفور قد سبق حور
فبحر من نظمها ما كل حد

ومنها :

ولم ر روصا مه بعد عصه
وأعطر أزهارا وأحلى مجانبها

وفي الحقيقة أن عبارات هذه الأبيات تدل على أن لناظمها وظيفة وارتباطا ببناء القصر . واكتفينا من هذا المنظر العظيم بهذا القدر الزهيد ، وخرجنا من البطحاء المذكورة ودخلنا من الباب الذي ذكر فيما تقدم فوصلنا إلى منظر بهيج ، ومنزه عجيب ، ترك ما رأيناه في درجة ثانوية من الاهتمام .

فإنك متى دخلت من هذا الباب خرجت إلى فسحة مربعة على أربعة صفوف من عمد المرمر الأبيض ، وطول كل عمود نحو الخمسة أمتار . وبذلك الفسحة محكمة البناء . والأرض مرصوفة من لحساء . وبذلك جميع أرض البطحاء . فإذا جرت الفسحة استقبلك حوض من المرمر الأبيض مربع الشكل عمقه نحو ذراع . وطوله ثلاثة أمتار في مثلها من العرض . وهو محمول على اثني عشر أسدا ، وهي قائمة على أقدامها والماء يجري من أفواهها في دائرة حاجزة فيصرف منها إلى مجار أخرى . وفي وسط الحوض عمود من المرمر أيضا يفور منه الماء أيضا ، فيصب في الحوض حتى يمتلئ وما زاد على ذلك يصب من فوهة تلك الأسود . وجميع الحوض والأسود والعمود من قطعة واحدة من المرمر وهو شأن صناعي ثوبال . ومن يدافع الصنع فيه أنك لا ترى المسافة التي تقف ما يقصر من الحوض إلى الأسود مهما أمعت النظر وتسمى هذه البطحاء « بطحاء الأسود » .

وهذه البطحاء مسافتها تبلغ نحو ستين مترا في مثلها تقريبا أو يزيد ، وفي محيطها دوائر مخصوصة . في كل دائرة منها حجرات وقاعات مختلفة المساحات طولًا وعرضًا وارتفاعًا ، وكلها من حديد نحس المنقوش من النقوش البارزة . وفي أكثرها ما تقدم من نغرات ونكرات راقية من

نقصان . ولم أستطع حصر كمية الحجرات والقاعات فإن ذلك شرح بطول
حذا يحتاج إلى تحريره زمن طويل . وسقوف جميع تلك القاعات قباب إلا أنها
مختلفة الشكل منها ما هو كالقباب العادية ومنها ما هو محدب ومنها ما هو
غير ذلك .

ثم قضينا العجب ، من آثار ملوك العرب ، وخرجنا مودعين هذه القصور
العالية ، أو هي الرسوم الخالية ، بل الطلول المطلولة البالية ، ذات العبر
الباقية ، والآثار الباكية . وتذكر حديث ذلك العهد القديم ، ويقول لسان الحال
وهو المنطق الحكيم : جنات وعيون ومقام كريم وعيشة مطمئنة كانوا فيها
فاكهين . دألوا على الأيام فعلوا ، ودالت عليهم فاعتلت ، وورثها بحكم الدور
رجال قوم آخرين ، فما بكت عليهم سماء المعالي وانشقت لهم أرض التمكن
وما كانوا منظرين ، شيدوا فهدموا ، وأوجدوا فعدموا ، وسبحان من له الدوام .
وهو أحكم الحاكمين .

[الكامل]

أشخاصهم فنسبت ولكن نكرهم

أبدا على مر الليالي باقى
وعندما خرجنا قال لى مزورنا وهو إسبانيولى : تعلم أننا استعملنا ثمانية
قرون حتى زحزحنا العرب عن ملكها واستولينا على هذه القصور ؟ فقلت
له : « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » . ولكن هل ترى أنكم
أهدرتم دماء منات أنوف من جنودكم فيها ؟ فقال : بل ملايين ، فقلت له : ان
طارقا (٥٦) عبد موسى بن نصير (٥٨) استولى على اسبانيا فى ثلاث سنين
ولم يكن معه إلا واحد وعشرون ألف مقاتل ، فاعترف بهذا المقدار .
وأخبرنى أحد المصورين هنالك أن معيشتهم محصورة في رسم الحمراء ،

(٥٦) طارق بن زياد (٥٠ - ١٠٢ هـ / ٦٧٠ - ٧٢٠ م) فاتح الأندلس . أصله من البربر . سنة
على يد موسى بن نصير فكان من أشد رجاله . ولما تم لموسى فتح طنجة ولى عليها طارق
سنة ٨٩ هـ فقدم فيها إلى أوائل سنة ٩٢ هـ . فجهز موسى نحو ٢١٠٠٠ مقاتل معظمهم من
البربر لغزو الأندلس وولى طارقا قيادتهم فنزل بهم البحر واستولى على جبل كلبى Capé الذي
سمى بعد ذلك جبل طارق .
خط تاريخ كلى . الأعلام ، ص ٣١٣ ، ج ٣ .
موسى بن نصير ١٠١ - ٩٢ هـ ٦٤٠ - ٦٤١ م

وذاكرنى وذاكرته وسألته عن كتاب له ضخمة ألفه في حق قصر الحمراء .
فأجابنى أنه نفذ ولم يبق لديه إلا نسخة واحدة وأنه ألفه فى عدة سنين . وهو
كتاب مهم مختص بالقصر المذكور ويوجد بسائر مكتبات مدريد .

وعلى القرب من الحمراء دار عظيمة تسمى دار « اسماعيل » وهى لأحد
قادة الجيوش الاسلامية باقية على حالها إلى الآن .

وفي صبيحة اليوم الحادي عشر من صفر الخير توجهنا من غرناطة الى
قرطبة على طريق إشبيلية وبين المدينتين مسافة أقل من ساعة بالسكة
الحديدية فوصلناها بسلام .

قرطبة

دار الخلافة الأموية الاسلامية ، وتحت الحكومة الأندلسية نحو خمسة
قرون ، مجمع العلماء العاملين ، والحكماء الأساطين ، والمجاهدين الأولين .
وهى اليوم ليس فيها من ديار منهم . ولا راوية عنهم . إذا جاء المحمدي لفته
الآثار ، وشاركتها الأطلال بلسان الاندثار [!] ★ .

[الكامل]

لا أنت أنت ولا الديار ديار
خف الهوى وتقصت الأوتار

إذا تأمل المؤمن فى هذه العبرة الخالدة ، وراجع تاريخ الأندلس ، وتفرق
وجهتهم ، وتمزق كلمتهم ، وتبدد طوائفهم ، بعد أن كانت العزة بالله لهم فى
ظل الخلافة الأموية ، علم معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « فإن كان لله
تعالى فى الأرض خليفة فضرِبْ ظهرك وأخذ مالك فأطعه وإلا فمت وأنت
عاض بجذل شجرة » (٥٩) .

★ كذا بالأصل .

(٥٩) قال البيضاوي : المعنى إذا لم يكن فى الأرض خليفة فعليك بتعزلة والصبر على تحضن شدة
الزمان . وعرض أصل الشجرة كنالية عن مكابدة المشقة كفوتهم كان بعض الحجارة من شدة
الأم . هذا معنى قوله (وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة)
وجذل الشجرة أى أصلها .

أنظر : عون المعبود . شرح سنن أبى داود ، للعلامة أبى الطوب محمد شمس الحق العقود
إباده .

ط ٢ - ١٣٨٩ . ١٩٦٩ ج ١١ ص ٣١٣ - ٣١٤

وأدرك سرّ نهيه صلى الله عليه وسلم في خطبته الشريفة عام حجة الوداع إذ يقول : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (60) إذ لو لم يفترق ملوك الاندلس ولم تنقسم طوائفها لما تمكّن الأجنيبي فيهم وأصبحت دار خلافتهم وملحاً حكومتهم كأن لم يكن بالأمس . والحكم لله « إن قضى أمرا يقول له كن فيكون » .

ولنحبس عنان القلم فنقول : قرطبة هي مدينة كائنة في جنوب مدريد وشرقي غرناطة الشمالي ، كائنة في بسط من الأرض يحيط بها بساتين عديدة ومزارع الزيتون من كل جانب . وفي خلال تلك المزارع والبساتين آثار قصور الاسلام البائدة ، وفي خلالها الطرقات المستقيمة المنسعة تمتد فيها العربات مثنى وثلاث ورباع بغاية الراحة ، وهي من آثار نظام العرب . أمّا اليوم عدتهم خمسون ألفا على أنها كانت في أيام العرب تشتمل على أزيد من مليون نفس على ما أقر به كثير من مؤرخي الافرنج . وبنائها على الطرز الأوروباي ، وأزقتها قسمان : قسم خطه الاسبانيوليون ، وقسم بقي من مخطوطات العرب . وهذا القسم أوسع وأقوم فالطريق ربما وسعت أربع وخمس عربات إلا أن الطرق الاسبانيولية أحسن وصفا منها . وما يدريك كيف كانت حالتها الأولى في أيام العرب .

ومما يعجب له المتعجبون ما أطلعنا عليه حضرة الشهم الهمام والسياسي الكامل المفضل « طرخان باي » أفندي سفير الدولة العلية بعد عودتنا من « الأسكريال » إلى « مدريد » ، وهو كتاب ضخمة اسمه « نمو التمدن في أوروبا » في ثلاثة مجلدات يقول فيه مؤلفه : إن شوارع مدينة قرطبة كانت منورة بالغاز قبل أن تعرف ذلك أوروبا بخمسة أو ستة قرون ، وهو شأن عظيم ؛ إلا أننا نحتاج إلى تتبعه في تواريخ العرب إذا لم تذهب بأغلب الكتب أيدي الدوائر ، فإن الكتب الاسلامية التي كانت في هذه المدينة لم يبق لها من أثر . وكانت المواصلات فيما بينها وبين غيرها من الممالك الاسلامية منقطعة لبعده المسافة ولتساعيدات التنافسية وأن مناسباتها مع الافرنج بالطبع لم تكن على ما يرام من الصفاء والمودة ، ولذلك لا يمكن أن يرجى الوقوف على ما ذكره صاحب السألف الا بعد تأمل وتحرّ طويل . ومن حفظ حجة على من لم

(60) السان والتبين للجاحظ ج 2 ، ص 33 ، تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة 1933 .

يحفظ ، لا سيما ولم نر من يرد مقالته هذه من علماء الافرنج مع تشدّد حرصهم على اكتشاف الحقائق من كل شيء .

ولما وصلنا إلى هذه المدينة نزلنا في أحد خاناتها (61) ، ويعرف بخان « الشرق » . ثم بعد الاستراحة به قليلا من متاعب السفر ذهبنا لقنصل الدولة العلية بقرطبة وهو رجل إسبنيولي ، فتلقانا وأبلغنا أمر السفارة السنية وأمر الحكومة الاسبنيولية ، فصحبنا وبحثنا في المكتبات جميعها ، فلم نجد أثرا للكتب العربية أصلا . وهو أمر عجيب فإن مجامع الكتب التي كانت بقرطبة هي من الكثرة بمكان عظيم في الزمن السالف ، حتى أن السفير المشار إليه عرفنا أن فهرست الكتب العربية الاسلامية التي كانت باقية عند هجوم الاسبانيولين كانت خمسة وأربعين مجلدا على ما حققه من تواريخ الاسبانيولين وغيرهم . وهو ثبت حجة ، كثير الاطلاع على العلوم والمعارف عتيقا وحديثا .

فيظهر من ذلك أن الاسبانيولين لما دخلوا قرطبة لم يستعملوا الحكمة في استبقاء آثار العلوم ، ولم يعرفوا مقاديرها حتى ينتفعوا بها فأنلقوها عتوا واستكبارا . ثم لما دخلها نابليون الأول إمبراطور الفرنسيين أخذ ما بقي بأيدي القوم فتلاشت بين المنتهبين . فلو لم ينل الأندلسيون ما نالهم من الفشل والتشتت أولا ، ولم تتلاشهم إسبانيا ثانيا ، لما كان من البعيد أن تهديدهم علومهم إلى اختراع أشياء كثيرة من الادوات والصنائع والالات وغيرها ، ولكن التشتت لم يترك للعلوم من ثمرة فذاقوا وبال أمرهم وكانوا عبرة للعالمين .

ومما يستحق الذكر من آثار الاسلام في هذه المدينة أثاران باقيان ، أولهما : القنطرة التي على الوادي الكبير الذي مرّ ذكره . وهي مبنية بالاحجار الضخمة بناء محكما طولها أكثر من خمسمائة خطوة تقريبا ، وعرضها نحو العشرين خطوة . وعليها حواجز حجرية بين ما بقي من المدينة وبين ما أذهبته الأيام منها . فإنك إذا تجاوزت القنطرة إلى الجانب الآخر تجد بطحاء خالية تشهد انها كانت من العمر بمكان ولكن اضمحلت بالمرّة حتى اني لم اجد لقصر

(61) انظر اسفله تعليق (1) ص 67 .

المرحوم الخليفة عبد الرحمن الداخل المسمى بقصر الزهراء (62) من أثر
ينكر واثنيهما الجامع الشهير .

جامع قرطبة

هذا الجامع هو على طرف القنطرة مما يلي الجانب المعمور من المدينة ،
وهو من عجائب الدنيا . ذهبنا لزيارته ومعنا ولد القنصل ، فالزمنا القسيسون
تمكفون بأمر الجامع بتنزع الطربوش ولم يسمحوا لنا بغير ذلك ، وأخبرهم
ولد القنصل بمأموريتنا وقدم لهم أمر ملكتهم فلم يقبلوا صرفا ولا عدلا ، فذهبنا
من هنالك الى الوالي وعرفناه بالقضية ، فأخبرنا أن الجامع صار كنيسة وأن
حكمها ليس من خصائصه وإنما هو من وظيفة الأسقف . وأنه يساعدنا
بإستشارته . ثم انه من الغد أتانا ابن القنصل وأخبرنا بأن الأسقف قد سمح لنا
بزيارة المسجد فذهبنا نزوره . وإذا هو جامع عظيم هائل يحيط به سور جسيم
مرتفع لا يتجاوز الثمانية أمتار مبني بالأحجار الصلدة ، والصخور
الضخمة ، وله أبواب متعددة . ودوائر الصحن مسقفة معقودة السواري على
عمد من المرمر الملون بأنواع الألوان . وهي ساحة متسعة جدا تبلغ مساحتها
عشرة الاف متر مربع . والأرض كلها مرصوفة بالرخام الأبيض . والجامع
الشريف غربى ذلك الصحن . وارتفاع الجامع كذلك لا يتجاوز ثمانية أمتار .
وله نحو اثني عشر بابا . وحيطانه من الحجر وطوله مائة وثمانية وستون
مترا في عرض مائة وخمسة وعشرين فتكون مساحته من داخله واحدا
وعشرين ألف متر تقريبا . ومسقفه مرفوع على اعمدة من المرمر الملون
سماح الثلاثة التي تنهر الناظر وتحير الخاطر . وطول كل عمود منها
أربعة أمتار . وعدة الأعمدة في نفس الجامع تسعمائة . وفي دائرة الساحة

(62) عبد الرحمن الاول : (113 - 172 هـ - 731 - 788) أو الداخل ، مؤسس الدولة الاموية
بالاندلس (756 - 788) لقب بالداخل لأنه أول من دخل الاندلس من الملوك الامويين . كما
سمى نفسه فيش اسمه ثم لقب خلف خنيسه بن الرشيد بظاهر قرطبة . وحامها كسر
قام خلفاؤه بتوسيعه . اما الزهراء فمدينة تقع شمالي قرطبة . يدها عبد الرحمن الثالث أو
الناصر ، ثامن أمراء بني أمية بالاندلس (ت 300 - 350 هـ - 912 - 961 م) .
انظر : الزركلي . الاعلام ، ص 113 ، 114 ، ج 4 الموسوعة العربية الميسرة ، ط 1 ص

الخارجة كما ذكرنا عمد عدتها مائتان ، فتكون الكمية ألفا ومائة عمود .
وأرض المسجد من أنواع اللين الملون المحكم . والمحراب والمنبر من المرمر
الصافي منقوشان بالنقوش البديعة المغربية عن سر الاتقان الصناعي حق
الاعراب . وفي المحراب مكتوب بالخط الكوفي في نقش بارز محلى بالذهب
« باسم الله الرحمان الرحيم حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا
لله قانتين » (63) ثم تحت ذلك منقوش أيضا بالصفة المذكورة « الامام
الحكم أمير المؤمنين » (64) .

ومما يجب أن يذكر أن الاسبانيولين لما استولوا على البلاد طلب رؤساء
الديانة من القيصر « شارلكان » أن يرخص لهم في اتخاذ كنيسة لهم في
وسط الجامع فأذن لهم . ففصلوا من وسط الجامع مقدار ستين عمودا وجعلوها
معبدًا لهم وهي قائمة الآن . وفي مساء اليوم الثامن عشر من شهر صفر الخير
رحلنا من قرطبة إلى « بلنسية » بالسكة الحديدية واستمر سفرنا طول تلك
الليلة كلها إلى صبيحة الغد ، وبكل من حافتي طريق مسيرنا اشجار مختلفة
ذات طيب وظل وثمار .

بلنسية

هذه المدينة محاطة بالبساتين من جميع جهاتها كائنة على الجنوب الشرقي
من « مدريد » وشرقي « قرطبة » ، وهي من أهم مراسي البحر المتوسط .
ولها علاقات تجارية مع غالب بلدان أوروبا التي يحيط بها البحر المذكور .
بنيانها منتظمة وشوارعها مستوية لا وعر فيها . وبها من السكان نحو مائة
وستين ألف نفس وأعظم تجارتها : الخمر والأرز والفكهة . إلا أن أغلب
التجارة في أيدي فرنسويين وألمانيين . وأهلها على غاية من الكسل لا يحترفون

(61) النقرة . اية 218

(64) الحكم بن عبد الرحمان الناصر بن محمد بن عبد الله : (302 - 366 هـ - 914 - 976 م)
خليفة أموي اندلسي . ولد بقرطبة . وولى الخلافة بعد أبيه سنة 350 هـ فقص به من
الاسبان « اردون ابن الفونس » فنهاى للاغارة على قرطبة . فسقه للحكم وعرا الاسبان
نفسه . فعاقده عن السلم . دامت ولايته خمسة عشر عاما
انظر الزركلي . الاعلام ، ص 295 ج 2 .

شئاً بحيث أن بضائع البلد كلها مستعارة من البلاد الأخرى . ولها تقدم في المعارف والعلوم لكن بالنسبة لما سواها من بعض البلاد الاسبانيولية كبرشلونة كما يأتي ذلك في بابها إن شاء الله . وفيها من السؤال خلق كثير . ولما دخلناها نزلنا بخان (65) فرنسوي . ومن هنالك توجهنا لمقابلة

فصل الدولة العلية . وهو من معتبري هذه البلاد واسمه « فرانسيسكو » . وهو من أكبر تجارها وأغناها ، وله صداقة نحو الدولة العثمانية وإخلاص تام . وهو في خدمتها من نحو خمس وثلاثين سنة ، وله اعتناء عظيم بالعرب والوافدين من التبعة العثمانية . قابلنا بغاية الاهتمام وبحثنا في دور الكتب الموجودة هنا فلم نجد للكتب الاسلامية بها من أثر .

ومن آثار العرب الباقية فيها إلى يومنا هذا بابان عظيمان من أبواب المدينة مبنيان بالحجارة القديمة المثمنة . وعلى يمين كل واحد منها ويساره حصن من حصون أهل الأندلس ، وكلاهما اتخذ سجنًا بالمكان وليس للاسلام بها غير ما ذكر من أثر .

وفي الثاني والعشرين من صفر الخير بارحناها متوجهين نحو مدينة « برشلونة » فدخلناها بعد مسير يوم وليلة بعد أن قطعنا فيافيها الخصبة المزروعة ذات اليمين وذات الشمال لموقعها الشمالي من المملكة حيث إن خصب إسبانيا في جهاتها الشمالية . وبها شيء كثير من النخيل والزيتون والأعنان .

برشلونة

هذه المدينة في ساحل مهم على البحر المتوسط . مبانيها وشوارعها متقنة عظيمة البحارة ، دائمة الشغل والأعمال بعكس سابقتها ، متقدمة في العلوم والمعارف والأشغال العمومية . أهلها أهل كد وحزم لا أثر للسؤال بها .

(66) الخان : فندق متسع لاواء المسافرين ، وكان للخانات مداخل ضخمة ذات عقود وأبراج ، وتتكون في الداخل من صحن متسع تربط فيه الدواب ، ويحف بالصحن حجرات . حواصل : تودع فيها العروض ، تغلوا حجرات أخرى لمبيت المسافرين ، وفي الخارج حوائط للتجارة .

انظر : الموسوعة العربية الميسرة . ط 1 . ص 570 .

ولشهرتها لم نر للاطناب بها من سبب . ليس فيها من الآثار العربية شيء إلا منزلة واحد يسمونه بالرملة ، وهو اسم باق له مسمى وليس في مكتبتها كتاب عربي . أقمنا فيها لأجل الراحة وزبارة مبانيها العمومية ثم خرجنا منها سلاسل بعد عشرين يوماً ، وهو يوم مبارحتنا لبلاد الأندلس ، فقصدنا منها باريز بطريق سكة الحديد .

وهنا انتهز هذه الفرصة لأظهار تأثر العرب في لغة الأسبانوليين قرأت في ابتدء في الكلام على باريز فأقول : إن عدة ألفاظ من اللغة العربية يستعملها الأسبانوليون في لغتهم مع بقاء المعنى وهي : فلان ، ومنديل ، وقنطرة ، وقط ، وقصر ، وسكر ، وأرز ، وقاضي ، وإن شاء الله ... وعدة كلمات أخرى لم نحضرني الآن منها أداة التعريف في المذكر كقولهم (سرو) أي كتاب فإذا أرادوا نعره أدخلوا عنه (ل) فيقولون (ال سرو) وحرف مسبو « سيموني » معلم اللغة العربية بقرطبة أنه يوحد من اللفاظ نعره في اللغة الاسبانيولية أكثر من ثلاثة آلاف كلمة ؛ إلا أن بعضها طرأ عليه تحريف كقولهم : قط (قت) ، وفي قصر (كشر) ، وفي سكر (شكر) وفي قاضي (كادي) ، وفي إن شاء الله (أوخا الله) ، وهنالك قاموس مخصوص لجميع الألفاظ العربية المستعملة عندهم في لغتهم .

ثم إنني سألت حاكم مدينة قرطبة : هل يوجد أناس باسبانيا من نسل العرب مع بقاء أسماء عائلاتهم الأندلسية ؟ فأجابني : بأن ذلك لا أثر له الآن باسبانيا البتة ، ولا يعرف أحد من الاسبانيوليين مبدأ نسبه ، ثم قال لي : إن الاسبانيوليين لما دخلوا على العرب وافتكوا منهم أرضهم هاجر فريق منهم إلى تونس والمغرب ، وفريق هاجر إلى جنوب فرنسا وإيطاليا ، وهؤلاء صاروا فرنسويين وإيطاليين بعد ثلاثة أجيال . ومن العائلات التي تنصرت بإيطاليا عائلة تعرف « بيني نحاس » ولم أقف على أكثر من هذا انقر . والظاهر أن القوم مرت عليهم أيام صعبة واضطهاد عظيم حتى اضطروا من بقي منهم لستر أصلاتهم وعائلاتهم ، خوفاً من الحكومة بسبب الانقلابات الهائلة والحروب العظيمة .

كما أني شاهدت أيضاً بقية من عادات العرب عند أهالي إسبانيا ، من ذلك : لباس نساء البادية بها فإن كيفية ثوبهن كثياب نساء الوادي بتونس .

ومن ذلك أيضا ما اعتننا به فنصل الدولة العلية ببلنسية أن الرجال الذين
يستعملون خدمة الساتين لا يسون السراويل طولا بل حددها الى الركبة
من ثياب رجال تونس . ومنها ما اخبرنا به أيضا من أن أهالي جنوب
سنة كعراطة ونسبة وغيرهما اذا دخل عليهم الضيف وهم يأكلون
عرصونه نى نضعهم كعادات لعرب بخلاف سكان شمال إسبانيا فإنهم
يمنون بقول شاعر :

[السبيط]

قود : كنوا حفسوا كلامهم

واستوثقوا برتاج البساب والدار

ومن ذلك ما شاهدته بالذات وهو أن من عاداتهم إذا دخل غريب القهوة
وكان له فيها اصحاب وشرب شيئا من القهوة أو غيرها يدفع ثمنها بعضهم
أصحابه بحيث لا يعلمه هو حتى إذا سأل خادم القهوة عن قيمة مشروبه يجيبه
بأن قد دفع ولكن لا يخبره باسم الدافع مهما شدد عليه . وربما حصل ذلك بين
الأصحاب منهم أيضا وهي عادة حسنة ، الظاهر أنها بقية من عادات
الأسس ولما كانت العادات المستعملة في عموم بلاد الإسلامية غربا
وشرقا : إلا أن اخفاء اسم المكرم فإنها من خصائص القوم ولا يمكن الجزم
بصحتها في الأسس لا بقربة صانة لكرم في لعرب . وصالة الاقتصاد
في الأسس .

ومن عاداتهم أيضا أنه اذا جالسهم أحدهم بالقهوة وأتى له الخادم بشيء من
المشروب ومعه شيء من السكر فإنه يضع منه مقدار ما يكفيه بوعائه والباقي
يضعه في جيبه والذين يرتكبون هذه القاضحة في الأغلب هم من أواسط
الناس فمن دون ذلك .

ومنها ان النساء المستخدمات بعد تتيم أشغالهن يخرجن من البيوت
مقلن عند أبوابها يستعرضن بأنفسهن المارين فاذا راودهن القاصد اتفقن معه
. من له نى حيث تهيى وتموتات . أكثر ما تكون هذه الحالة أمام دور
الاعنياء والاكابر ولا حرج عليهن فى ذلك مطلقا .

ومن المحاسن عندهم حمن لباس العسكر ونظافتهم واستكمال أسباب
تحسين حياتهم . من ذلك حال سباهم ولبس من أحمل ساء أو روبا لامرأج

الندم الأسانيولى بالندم العربى وتناسب الألوان والأشكال فى علبهم . ومن
الحقيقة أجمل من نساء فرنسا إلا أن هاتيك ربوات خلاعة وأداب حريص
وتتميز الأسبانيوليات بقلة التبرج وعدم مزاحمة الرجال والاختلاط معبد لفة
خروجهن وعدم تعودهن على التجول الدائم والتهافت الكثير .

ومن محاسن عاداتهم أن القهوة لا تشرب إلا بالليل فى جميع القهوتى وربما
ان صاحب القهوة يربى عدة رؤوس من البقر بخصوص ذلك لكثرة
استعماله .

ومن العادات التى أخرجت اسبانيا عن معراج الترف الأوروبي هو أنها
منقسمة الى أحزاب منكبين وهو قسمان (كارليست) (66) (وشربون) (67)
وحزب الجمهورية . ومن غرائب أحوالهم أن كل وزارة جديدة تعزل جميع
المستخدمين من التابعين لسلفها وتستخدم غيرها من أحزابها ، وكل ناظر
نارة متى توظف أحد من حزبه مستخدمين وعزل جميع للأمورين السابقين .
وهذه الأسباب توحيدة فى عدم أمن للأمورين على وظائفهم عند تولت فتمت
أيديهم نى اعتماد الفوائد الخاصة التى يرحون بها تأمين استقالتهم . ودعة
نلى حرصهم على الحركات والأعمال المتضاربة عند عزمهم نول توظيف
ولا يخفى تأثير ذلك فى أحول نهاية الاجتماعية وما يستترمه من تشوش
الأذهان وتأخر الحوائج واضمحلال الحقوق .

ومن العادات المضرة أيضا عدم إجراء التعليم الاجباري فى إسبانيا كما هو
فى فرنسا وغيرها ، فإن ذلك قد أوجب لهم التأخر عن جميع الاقترنح فى
العلوم والفنون والصنائع وان كانت حصرتهم لا نى بها لا نى نحتاج نل
درجة فرنسا أو غيرها من الدول إلى مائة عام حتى أن عدم وجود المعامل
الكافية للصنائع قد أوجبت لها احتمال مصاريف باهضة فإن الأشنة
والأقمشة وغيرها تاتى إليها من فرنسا ولندرة وغيرها ، وبأخذها الأهون

(66) كارليست : نسبة الى دون كارلوس (الذى فرينند) نل فى وجه ابنة أخيه ليزلا 2 (1833)
(1834) التى كان حكمها طافحا باتفن والموايرات والحروب الأهنية وانتهى بزولها عن
العرش .

انظر : الموسوعة العربية المبررة . ط 1 . ص 137 .

(67) البربون : أسرة منكبة حكمت اسبانيا (1700) باعلاء حفيد نوبس 14 . وهو فنيب 5 .
لعرش اسبانيا .

انظر الموسوعة العربية . ط 1 . ص 427 . 428 .

سما غلبة جدًا وذلك لارتفاع مقدار الكمارك . والظاهر أن الحكومة لاسانولية قد عازمت على ترويج صناعتها الداخلية . ومن ذلك سلطة تقسيم فان لهم نفوذًا وقوة بين أظهر القوم ولهم تسلط على أفكار الاهالي وحضوة عظيمة عند مجلس الامة ، وهم الطبقة العليا من السكان وبيدهم كناس والوظائف العلمية وهم على شيء من العلم الا أنهم يكرهون ترقى لغود وتعميم المعارف خلافا لما تأمر به شريعتنا الاسلامية وذلك لكبلا بنحط اعشارهم وبضمحل نفوذهم . ومن الدليل على قوة الرئاسة الروحانية أن سفير البابا في مدريد يتقدم سفراء الدول في المقام الرسمي ومن العجب نعد ان أولئك الزهان كلما ظفروا بمسلم عرضوا عليه التنصر وقد حصل في ذلك مدينة الاسكندرية لما كنت فيها فقد عرض على أحد سخفانهم ترك نيابة الاسلامية مرارا واعتبر ذلك في حالة تعصب القوم وأحعله قياسا لغره من جميع الأمور .

والفكر العام عند الشعب الاسبانولي قاطبة هو الاستيلاء على سلطنة المغرب الأقصى وجبل طارق ومملكة البرتغال ثم صيرورتها جمهورية . ولما سافرت من برشلونة متوجها إلى باريز أخذت طريق الحديد فشاهدت ما يحرض المشاهد على ممارسة سكان تلك الأراضي في درجات نقد وسظم فما فتر من الأرض الا وكان به أشجار وبقول ويزداد تعجب لمشاهد كنما نقد في تلك النواحي من حيث العمران مع اتساع البلاد . كما في رت في رحلتى هذه عدة آلات للحرارة وغيرها من فن الفلاحة ولكن لم تسعى لدراسة على جزئيات تلك الآلات ونفاصلها ، غير انى عرف بأهميتها لما رأيت من المنفعة الناشئة عن استعمالها بقدر ما يقر لاسان من مدينة باريز . تحسن الأرض ويزداد التنظيم حتى رأيت قرب هذه المدينة الاراضي المعدة للبقول منتشرة على سطحها أواني البلور كالقباب نصعة (٥٨) نفسها من البرد ولقد يشهد المتأمل بكمال اتقان تلك الأوعية ، حسن صنعها وعراة الواسها بما يزداد به اعتبارا في القوم ويعرف اعتناءهم من نقاحة الذي هو أصل في الرفاهية البشرية وان كان بعض الفرنسيين

يظن أن المعامل والصنائع يجلبان الربح أكثر منها لكن هذا خطأ محض لأن المعامل والصنائع أمر قد عم في أوروبا والشيء اذا وصل إلى هذه النية في ضده فلا بد من رجوع القوم كلهم أو جلهم يوما من الأيام إلى صناعة الفلاحة لأن أرضهم تساعدهم على الربح أكثر مما ينتج من المعامل والصنائع .

وفي الثامن والعشرين من نوفمبر سنة 1887 مسيحية وصلنا لمدينة باريس فلاحظت بهذا البلد ما يدل على تقدم القوم واعتنائهم بالتجارة وتسهيل جر الأتقال والمواصلات التي هي أكبر الأسباب في العمران وهذه المواصلات كانت دولتهم كأنها بكل ناحية من أراضيها بحيث أن الأخر سياسية كانت أو غير سياسية بل وجزئيات الأمور الخاصة وسائر ما يطرا بأنحاء البلاد الجمهورية يرد على مدينة باريز يوميا بالجرائد والتلغراف ، فكان بذلك لمن بيده الحل والعقد علم بمدار السياسة الداخلية كأنه مقب بين أظهر سكان فرنسا جميعا . ولا حاجة هنا إلى الاطّباب بمدح تلك المدينة ناهيك بما قاله الشيخ رفاعة المصري (٦٩) في رحلته والشيخ محمد بريم في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار (70) ولما كنت متوجها إلى باريس رسميا من طرف المعارف الجليلة ناسب أن أشرف بمقابلة الشهم الهمام الوزير الخطير حضرة أسعد باشا سفير الدولة العلية بها ، فذهبت لمحله وهو من أعز أماكن باريس موقعا وبناء وتشرفت بمقابلته بعد الاستبدان وأتحفني بما استرق به مهجتي وانس به غريتي . ولأكبح الآن عنان قلبي في مدحه ولا أطنب وأقتصر على ذكر مدينة باريس إجماليا .

فباريس لا أراها إلا جنة للنساء ونزهة للرجال وجهنم للخيل ومتنفي

(69) رفاعة بدوي رافع الطهطاوي : (1801 - 1873) أحد زعماء حركة النهضة العلمية بمصر في القرن التاسع عشر ، بعد انتهاء نغمه بالأمر ، سافر في بعثة علمية موفودة من قبل محمد علي إلى فرنسا وأقام بها أربع سنوات (1826 - 1831) وسجل مشاهداته في كتاب نقر رواج في عصره : تلخيص الابريز إلى تلخيص باريز . انظر ابن أبي الضياف : اتحاف (متفرقات) وخاصة ص 45 .

(70) بريم الخامس : (1834 - 1893) ابن اخ شيخ الاسلام الرابع ، تتلمذ على الشيخ محمد بوحاجب ، ودرس بالزيتونة ولكن غلب عليه العمل السياسي والاصلاحي . تراس الأوقاف والراند التونسي والمطبعة الرسمية وسافر كثيرا خاصة ابتداء من سنة 1878 مما مكّنه من تحرير مولفه : صفوة الاعتبار في خمسة أجزاء . واستقر آخر حياته بمصر حيث أصدر جريدة الاعلام بالاسكندرية سنة 1884 .

انظر : محمد الفاضل بن عاشور : أركان النهضة الادبية بونس . ص 21 - 27

تتفسيح ولا يلزم التعرض لبيان حسن نظامها وانتظامها ولطف مناسبتها
وكمال رونقها البهيج وتقدم ثروتها وتمدينها ومحامعها العلمية والصناعية
وانواع المحاسن التي جعلت مدينة باريس بمنزلة العقل من جسم الكرة الارضية
ونضوء بالنسبة الى المنظومة الشمسية وكيف يصح التعرض لتفصيل جمالها
الانساني والاجتماعي وهي قفابك العالم الأوروبي . وأما حال المواصلات فيها
فأقول ان باريس على عظمتها واتساعها صارت بمنزلة دار كبيرة تسكنها
عائلات كثيرة بسببها .

وفي يوم الثالث عشر من شهر دجنبر رحلت منها في طريق الحديد الى
مرسبنا واقمت فيها ثلاثة أيام أنتظر الفابور البحري .

وفي اليوم السادس عشر منه ، ركبت متن الفابور المسمى (ارمني) من
شركة (ككت) كما تقدم في أول هذه الرحلة وسافرنا فمررنا بمرسى (مستأ)
والقعة السنطانية . وفي صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين وصلنا الى دار
لخليفة العظمى زاهدنا الله تعظيماً . وبذلك انتهت رحلتنا هذه على أحسن
حال وأكمل منوال وصلى الله على سيدنا محمد وأصحابه وألآل .

أسماء الكتب المنتخبة من المكتبة العمومية بمديرية قاعدة اسبانيا الان

- كتاب العين في اللغة بجزء ضخمة للزبيدي تاريخ نسخه سنة 368 هـ .
- كتب الحوامع لأبي الوليد بن رشد حرد فيه الأقاويل العلمية من كتب
أرسطو بعد حذف ما فيها من مذاهب غيره .
- كتاب الخصال لابن زرب في المذهب المالكي .
- كتاب المفتاح في اختلاف القراءات السبع لابن القاسم عبد الوهاب ابن
محمد .
- منتخب الواعظين .
- كتاب النكت والفروق من المدونة والمختلطة تأليف الامام عبد الحق .
- كتاب الأربعين في أصول الدين للامام الغزالي .
- كتاب المقالات السبع في الحشائش والسموم ترجمة حنين بن اسحاق .
- السفر الاول من كتاب التصريف لشيخنا عبد الله بن القاسم في نظم لآلي
القاسم خلف ابن عباس ومعه السفر الثاني مبتور منه قليل .
- كتاب الأنوبة المفردة الف لابن هود احد ملوك الأندلس
- كتاب كمال الصناعة الطبية للمعروف بالمالكي .
- كتاب الأسطقات في الطب مترجمة حنين بن اسحاق وأصله
لجالينوس .
- كتاب تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس تأليف علي ابن عبد الرحمن
بن هذيل .
- كتاب تحفة الأبرار ودرة الأسرار لابن الصباغ .
- السجل المهني فيه عن مربب لخمير لغة بعض لغته ، ثم يسم نفسه فيه
وأرسله لبعض ملوك بني أمية بقرطبة .
- رحلة ألفها أحد سفراء دولة المغرب فيما يخص اثار العرب بالأنس .

الكتب المنتخبة من المكتبة التي ببلد الأسكريال

- الهادي إلى مقاصد المرادي على الألفية مؤلفه أحمد ابن أبي القاسم النقزومي الأندلسي الغساني وهو كتاب نفيس منسوخ من نسخة مؤلفه بخزانة السلطان أحمد المنصور الهاشمي العلوي بالمغرب .
- شرح ألفية ابن معطى في النحو لمؤلفه عبد العزيز بن جمعة الموصلي .
- حاشية على تسهيل ابن مالك جيدة في فنها ومؤلفها لم يسم نفسه في أولها .

- كتاب المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية لأبي إسحاق الشاطبي وهو حُبس على مدرسة يسكنها الطلبة بسويقة القاضي بغرناطة .
- السفر الأول من كنز الطالب على شافية ابن الحاجب بخط مؤلفه ابن جمعة سعيد بن مسعود المراكشي .
- الصنهاجي وهو لا نظير له في فنه .
- شرح ابن الجبار على ألفية ابن معطى في النحو من كتب أمير المؤمنين زبدان بالمغرب .

- حواشي الزوزني على كتاب اللباب في النحو للسيف الأسفرائيني بخط مؤلفه بمدينة نيسابور سنة 636 هـ وهو من كتب الأمير المذكور .
- كتاب الفاخر في شرح جمل عبد القاهر الجرجاني تأليف العلامة شمس الدين السلي .

- كتاب الذخائر للإمام أبي الحسين علي بن محمد الهدوي في حروف المعاني ومعه شرح الآيات البيئات لفخر الدين الرازي .

- النصف الأول من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم تأليف أبي الحسن تشوان الحميري علامة أهل اليمن وهو كتاب جليل في اللغة .
- الروض الأنسم في معاني حروف المعجم تأليف أحمد بن محمد ابن غفران بن تمار بن مؤنس البحاني وقال في خطبته فجمعته أشاتاً ومحاسن وناهت بها لنالي الأصداف وحواهر المعادن فلو كانت لنالي لفصلت بها هذه الأسماء ولو كانت رذائل لصغت فلاند وأقراط ولو كانت أزهاراً لخط

بها فرع الرياض ولو كانت روضاً لما ذوى نبتة ولا أضي . ا. هـ . وهذا كما قال في وصفه إلا أنه ناقص شيء يسير من حرف ثاء هـ من كتب السلطان زبدان .

- كتاب الرد على الزبيدي في لحن العوام لمؤلفه الأستاذ الأجل أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن هشام الأندلسي وهو كتاب لا نظير له في فنه .
- كتاب إيضاح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي لمؤلفه الأستاذ أبي علي حسن ابن عبد الله القيسي الأندلسي في النحو وهو كتاب عزيز غريب في فنه .

أسماء الكتب المنتخبة من المكتبة بالأندلس

- تحقيق المقال وتسهيل المنال في شرح لامية الأفعال لمؤلفه محمد بن عبد الله بن العباس وهو شرح نفيس عزيز .
- شرح تصريف خلاصة ابن مالك وهو شرح نفيس ومعه إيجاز التعريف في علم التصريف ألف باسم الملك الناصر صلاح الدين لا نظير له في فنه ومعهما زوائد أخرى في علم التصريف نافعة جداً .
- كتاب المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان مما عني بتأليفه الأستاذ الأجل العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد .
- ابن هشام اللخمي رواية الفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن حسن بن عطية عنه رواية علي بن محمد بن علي الغافقي المعروف بابن الشاري وهو كتاب في اللغة عزيز . (!) .
- شرح علي حمل الزحاح للخطيب أبي سعد فرح بن قس من كتب الثعلبي الأندلسي عزيز نفيس .
- السفر الثاني من كتاب المختصر في علم النحو لأبي الحسين عبد الله بن أحمد بن أبي الربيع القرشي الأندلسي .
- كتاب تفسير المشكل من كتاب المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد مما عني بشرحه الإمام سعيد بن سعيد القارقي . كتاب نفيس قديم الخط في النحو .

كتاب الشبهات على ما في البنان من التموهيات لمولفه الاستاذ
محزومي في النحو .

كتاب المسائل المهمة للصفى الحلبي منقولة بخطه نفيسة جدًا تدبغة
في اصلاح غلط العامة في النحو .

كتاب المشكلات والنبراس شرح كتاب الكراس كتاب جليل في النحو
لمولفه قاضي الجماعة أبي اسحق الصنهاجي المشتهر بالعطار .

كتاب في العربية والأدب أوله . عسى سلف من أهله فشوارح .

فصل في تعلق النشأ في تعلق النشأ في تعلق النشأ في تعلق النشأ وهي
والاسم منه معرب ومبنى الى قوله أصلاً وهو جزء ضخم بخط مولفه .

تاج العروس للعارف بالله تاج الدين عطاء الله في التصوف غريب .

كتاب التحفة البهية في شرح المنظومة المسماة بالعدلية في نظم
الأجرومية بخط مولفه .

شرح لب الألباب في علم الاعراب بخط مولفه شرح جليل حافل كامل .

شرح الانجاز للامام الرضي الطبرسيني كتاب في النحو جليل .

السفر الثاني من كتاب الملخص في علم النحو لابن أبي الربيع الذي مرّ
ذكره .

أجوبة من أمالي للفقير الاستاذ أبي القاسم بن أبي الحسن الخثعمي
الاندلسي ثم السهيلي وجلها أجوبة عن مسائل له سأله عنها الفقيه المحدث أبو
اسحق ابن قرقول رحمة الله عليهما . وهي كاملة بخط العلامة محمد بن عبد
الملك تاريخ كتبها موفى ثلاثين من المحرم عام 697 هـ فيه مسألة صرف
عمرو .

كتاب شرح الجزولية في النحو للأستاذ النحوي أبي علي عمر بن محمد
ابن عمر الأزدي وهو نفيس عزيز .

كتاب غامض صحاح الجوهري للصفدي بخطه وفي آخره ما نصه القائم
كتاب غامض الصحاح للجوهري وكتب مولفه الفقير الى الله تعالى خليل بن
سنان عند تله الصفدي في جمادى الأولى عام 757 هـ بدمشق المحروسة
، الحمد لله حق حمده وصلاته على سيدنا محمد واله وصحبه وسلامه وحسبنا
الله ، بعد الله كل .

فهرس الاعلام والجماعات

أ.

ابن ابي الربيع ابو الحسين عبيد الله بن احمد : 79 - 80

ابن اسحاق (حنين) : 77

ابن الجبار : 78

ابن جمعة (سعيد بن مسعود المراكشي) : 78

ابن رشد (ابو الوليد) : 77

ابن زرب : 77

ابن زياد (طارق) : 64

ابن الصباغ : 77

ابن عباس (ابو القاسم خلف) : 77

ابن العباس (محمد بن عبد الله) : 79

ابن عبد الملك (محمد) : 80

ابن عطية (ابو عبد الله محمد بن حسن) : 79

ابن قرقول (ابو اسحاق) : 80

ابن محمد (ابو القاسم عبد الوهاب) : 77

ابن معطى : 78

ابن نصير (موسى) : 64

ابن هذيل (علي بن عبد الرحمان) : 77

ابن هشام (ابو عبد الله محمد بن احمد الاندلسي) : 79

ابن هود : 54 ، 77

أبو عبد الله محمد بن أحمد : 79

أحمد المنصور الهاشمي العلوي (السلطان) : 78

أرسطو : 77

الأروباويون : 41

الأزدي (أبو علي عمر بن محمد بن عمر) : 80

الأسبنيوليون 44 : 47 ، 48 ، 49 ، 52 ، 53 ، 56 ، 66 ، 67 ، 69 ،

71 ، 72 ، 73

أسعد باشا : 75

الأسفرائيني (سيف) : 78

الأفرنج : 54 ، 58 ، 66 ، 67 ، 73

الفنص الثاني عشر : 43

الألمانيون : 69

الاندلسيون : 67 ، 72

الانكليز : 58

أهل الأندلس : 70

أهل الحدود : 38

أهل اليمن : 78

إيزابيل : 42

الإيطاليون : 71

ب .

البجائي (أحمد بن محمد بن ويقلان بن نمار بن مؤنس) : 78

البعلي (شمس الدين) : 78

البربون : 73

بنو نحاس : 71

ت .

التونسيون : 55

ث .

الثعلبي (أبو سعيد فرج بن قاسم بن لهب الأندلسي) : 79

ج .

جالينوس : 77

الجرجاني (عبد القاهر) : 78

الجمهوريون : 43

ح .

الحفصي (حسن) : 54

الحفصيون : 55

الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله : 69

الحلي (الصفى) : 80

الحميري (أبو الحسن نشوان) : 78

خ .

الخزرجي (أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الحاج) : 60

الخشعمي (أبو القاسم بن أبي الحسن الأندلسي) : 80

د .

ديوجين : 51

ر .

الرازي (فخر الدين) : 78

رؤساء الأديان : 52 ، 69

الرومان : 53 ، 55

ز .

الزبيدي : 77

الزركشي : 80

زيدان (السلطان) : 52 ، 78 ، 79

س .

السفراء : 51

سفراء الدول : 41 ، 61 ، 74

السلطان المعظم (عبد الحميد) : 43

سليمان الثاني : 60

الصودانيون : 44

سيموني : 61 ، 71

- ش -

شارل الخامس : 55

شارلكان : 41 ، 50 ، 51 ، 54 ، 55 ، 60 ، 69

الشاطبي (ابو اسحاق) : 78

- ص -

الصفدي (خليل بن أيك بن عبد الله) : 80

الصنهاجي (ابو اسحاق) : 80

- ط -

الطبر ميني (الامام الرضي) : 80

طرخان بك (الباي) : 42 ، 49 ، 53 ، 66

الطليانيون : 37 ، 38

الطهطاوي (رفاعة بدوي رافع) : 75

- ع -

العارف بالله تاج الدين عطاء الله : 80

عبد الحق (الامام) : 77

عبد الحميد خان (السلطان) : 31 ، 34

عبد الرحمن الداخل : 40 ، 68

العرب : 40 ، 41 ، 50 ، 53 ، 54 ، 55 ، 56 ، 58 ، 61 ، 64 ، 66 ،

70 ، 71 ، 72

علماء إسبانيا : 42 ، 43

علماء الأفرنج : 67

علماء أوروبا : 50 ، 51

علماء السياسة : 41

العلماء الفرنسيون : 59

عيسى (عليه السلام) : 55

- غ -

الغافقي (علي بن محمد بن علي) : 79

الغزالي : 77

- ف -

فرانسوا الأول : 60

فرانسيكو : 70

الفرنسيون : 38 ، 40 ، 59 ، 69 ، 71 ، 74

فيليب الثاني : 41 ، 50 ، 51 ، 52

- ق -

القارقي (سعيد بن سعيد) : 79

القذرمي (احمد بن ابي القاسم الاندلسي العسائي) : 78

القيسي (ابو علي حسن بن عبد الله الاندلسي) : 79

- ك -

كارليست : 73

كبراء اسبانيا : 43

كرستوف كولومب : 42

كيستلار : 43

- م -

مارتيل (شارل) : 40

المالكي : 77

المبرد (ابو العباس محمد بن يزيد) : 79

المجريطي : 41

محمد (رسول الله) : 52 ، 76

محمد بيرم الخامس : 75

المخزومي : 80

المسلمون : 43 ، 44

ملوك اشبيلية : 57

ملوك الاندلس : 52 ، 60 ، 66

ملوك بني أمية : 77

ملوك العرب : 59

ملوك غرناطة : 61

منيف باشا : 31

مؤرخو الافرنج : 54

موسى الهادي : 52

الموصلى (عبد العزيز بن جمعة) : 78

- ن -

نابليون الاول : 55 ، 67

الناصر صلاح الدين : 79

الناصرى : 37 ، 53

نكولاي افتدي : 42

- ه -

الهدوي (ابو الحسن على بن محمد) : 78

- و -

الوردانى (على بن سالم) : 31

- ي -

اليهود : 53

فهرس البلدان والاماكن

- أ -

الأستانة : 32

اسيا : 33 ، 47

ازمير : 34 ، 36

اسبانيا : 31 ، 36 ، 39 ، 40 ، 41 ، 42 ، 43 ، 47 ، 48 ، 49 ، 50 ،

51 ، 52 ، 54 ، 55 ، 60 ، 64 ، 67 ، 69 ، 71 ، 72 ، 73

استراليا : 43

الاسكريال : 49 ، 50 ، 51 ، 66 ، 74

اشبيلية : 47 ، 55 ، 56 ، 65

افريقيا : 54

ألمانيا : 60

أمريكا : 32 ، 42 ، 60

الاناضول : 35

الاندلس : 41 ، 51 ، 52 ، 60 ، 62 ، 65 ، 71 ، 72

أوروبا : 33 ، 34 ، 35 ، 37 ، 40 ، 43 ، 49 ، 50 ، 66 ، 72 ، 74

ايرون : 39

ايطاليا : 35 ، 36 ، 37 ، 60 ، 71

الحمراء : 58 ، 59 ، 60 ، 64 ، 65
الحميدية : 34

- خ -

خان : 67 - 70
الخليج : 32
خليج الاسد : 36
خليج الليننت : 50

- د -

دار اسماعيل : 65
دار التحف : 42 ، 43
دار الخلافة الاموية : 65
دار الخلافة العظمى : 31 - 76
دار السعادة العلية : 35
دار السفارة : 40
الدردنيل : 33
دمشق : 80
الدول العظام : 41
الدول المتوادة : 34
الدولة الاسلامية : 62
الدولة العثمانية : 70
الدولة العلية : 34 ، 47 ، 50 ، 66 ، 67 ، 70 ، 72 ، 75

- ر -

الرملة : 71
الروسيا : 32 ، 36

- س -

سرکه جي اسكله مي : 31
سنقالية : 36
سيسليا (صقلية) : 35 ، 37

- ب -

باب انسلطين : 60

باب انشريعة : 60

باب الكمرك : 31

باريس : 31 ، 36 ، 40 ، 55 ، 59 ، 71 ، 74 ، 75 ، 76

البحر المتوسط : 36 ، 69 ، 70

البرتغال : 47 ، 74

برشلونة : 47 ، 70 ، 74

بطحاء الاسود : 63

البلاد الاسلامية : 72

البلاد العربية : 37

البلجيك : 51

بلدان أوروبا : 69

بواتيه : 40

بورنو : 38 ، 39

بوغاز (الدردنيل) : 33

بوغاز سبتة (جبل طارق) : 52

- ت -

تاج (نهر) : 53 ، 55

تونس : 36 ، 54 ، 55 ، 56 ، 71 ، 72

- ج -

جامع قرطبة : 68 ، 69

جبل طارق : 33 ، 52 ، 74

الجبلين العظيمين : 33 ، 34 ، 35

الجزائر : 36

جزائر فيلسين : 43 ، 44

- ح -

الحصن : 33 ، 35 ، 53 ، 58

- ش -

الشام : 37
الشرق : 37 ، 67

- ط -

طرابلس : 36
طليطلة : 47 ، 53 ، 54 ، 55

- غ -

غرناطة : 47 ، 57 ، 58 ، 61 ، 65 ، 66 ، 71 ، 72 ، 78

- ف -

فرنسا : 32 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 47 ، 51 ، 55 ، 71 ، 73 ، 75

- ق -

قرطبة : 47 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 77
القصبة : 47 ، 49 ، 50
قصر اشبيلية : 57
قصر البلور : 44
قصر الحرم : 61
قصر الحمراء : 58 ، 59 ، 60 ، 62 ، 65
قصر الزهراء : 64 ، 68
قصر السفراء : 61
قصر شرلكان : 60
قصر فيليب الثاني : 50
قصور الاسلام : 47 ، 49 ، 50
القطر الاسبانيولي : 47
القلعة السلطانية : 33 ، 76
القواعد البحرية : 33

- ك -

كاسبر : 36

كورس بونابرت : 36 ، 38
كولف دوليون : 36
كولين بانابرت : 36

- ل -

لندرة : 31 ، 55 ، 73

- م -

المتحف : 44
مجريط (اسبانيا) : 41
مدريد : 39 ، 40 ، 41 ، 44 ، 45 ، 46 ، 47 ، 49 ، 52 ، 53 ، 55 ،
56 ، 58 ، 65 ، 66 ، 69 ، 74
مراكش : 52
المرسى : 34 ، 36 ، 76
مرسيليا : 32 ، 35 ، 36 ، 38 ، 76
مسينا : 35 ، 76
المشرق : 52
مصر : 36
المغرب الاقصى : 32 ، 36 ، 52 ، 71 ، 74 ، 78
الممالك الاسلامية : 66
ممالك ايطاليا : 35
ممالك الدولة العلية : 32
ممالك فرنسا : 40
الممالك المحروسة : 32 ، 36
المملكة الاسبانيولية : 41
المنارة (الجيرالدا) : 56
ميدان الثيران : 45 ، 46 ، 47 ، 48

- ن -

النمسا : 60
نيسابور : 78

- ه -

الهند : 36

- و -

الوادي الكبير (باسبانيا) : 56

- ي -

اليمن : 78

اليونان : 36

فهرس الكتب الوارد ذكرها في الكتاب

- أ -

- أجوبة من أمالي : 80
- الأربعين في أصول الدين : 77
- الاسطقسات في الطب : 77
- إيجاز التعريف في علم التصريف : 79
- إيضاح شواهد الإيضاح : 79

- ب -

- تاج العروس : 80
- تأصيل البناء في تعليل البناء : 80
- تحفة الأبرار ودرّة الأبرار : 77
- تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس : 77
- التحفة البهية في شرح المنظومة المسماة بالعذلية : 80
- تحقيق المقال وتسهيل المثال في شرح لامية الأفعال : 79
- التصريف لمن عجز عن التأليف في الطب : 77
- تفسير المشكل من كتاب المقتضب : 79
- تمدّن العرب : 59

- ج -

الجوامع : 77

- ح -

حاشية على تسهيل ابن مالك : 78
حواشي الزوزني على كتاب اللباب في النحو : 78

- خ -

الخصال : 77

- د -

الادوية المفردة : 77

- ذ -

الذخائر في حروف المعاني : 78

- ر -

رحلة إلى الاندلس : 77
الرد على الزبيدي في لحن العوام : 79
الروض الانسم في معاني حروف المعجم : 78

- س -

المسجل المنهى فيه عن شرب الخمر : 77

- ش -

الشبهات على ما في البنان من التموهيات : 80
شرح الايات البينات : 77
شرح ابن الجبار على ألفية ابن معطي في النحو : 78
شرح ألفية ابن معطي في النحو : 78
شرح الايجاز : 80
شرح نصريف خلاصة ابن مالك : 79
شرح الجزولية في النحو : 80
شرح على حمل الزجاج : 79
شرح لب الانساب في علم الاعراب : 80
شمس العلوم : 78

- ص -

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار : 75
الصنهاجي (!) : 78

- ع -

العين : 77

- غ -

غوامض صحاح الجوهري : 80

- ف -

الفاخر في شرح جمل عبد القاهر الجرجاني : 78
- ك -

كتاب في العربية والادب : 80

كمال الصناعة الطبية : 77

كنز الطالب على شافية ابن الحاجب : 78

- م -

المختصر في علم النحو : 79
المدخل في تقويم اللسان وتعليم البيان : 79
المسائل المهمة : 80
المشكلات والنبراس : 80
المفتاح في اختلاف القراءات السبع : 77
المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية : 78
المقالات السبع في الحشائش والمسموم : 77
الملخص في علم النحو : 80
منتخب الواعظين : 77

- ن -

النكت والفروق من المدونة والمختلطة : 77

فهرس الابيات الشعرية

لا أنت أنت ولا الديار ديار	خف الهوى وتقصت الاوتار
قَوْمَ إِذَا أَكَلُوا أَخَقُوا كَلَامَهُمْ	واستوثقوا برتاج الباب ونذار
كَأَنَّ ضِيَاءَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ غَدْوَةٍ	على ورق الاشجار أول ساطع
فتى عاش في معروفة بعد موته	كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
قُمْ يَا أَخِي تَرِ النَّسِيمَ عَلِيلاً	باكر الرّوض والمدام شمولا
كانوا بدورا وكنا في منازلهم	نهوى حماهم ونرجو أن نقاتلهم
تبارك من ولاك أمر عباده	فأولى بك الاسلام فضلا وأنما
أشخاصهم فنيت ولكن ذكرهم	أبدا على مرّ اللّوالب باقى
أباهي من المولى الامام محمد	بأكرم من يأتي ومن كان ماضيا
	(الكامل : 65)

فهرس الكلمات الدخيلة

أ -

Arménie	أرميني : 76
Académie	أكدمي : 58 ، 55
Amphitéâtre	أنفيتيآتر : 45
Hôtel	أوتيل : 58 ، 50 ، 38 ، 36 ، 34

ب -

Paquet	باكيت : 76 ، 32
Bouledogue	البلدق : 47
	بوغاز : 52 ، 35 ، 33

ت -

Tramway	الترامواي : 50 ، 34
Torpille	توربيد : 33
Théâtre	التيآترو : 47 ، 37

خ -

خان : 70 ، 67

فهرس الاعلام الاجنبية

A

Alphonse 12 : 43

B

Bonaparte : 36

Bourbon : 73

C

Carlites (Don Carlos) : 73

Charles Martel : 40

Charles Quint : 41, 50, 51, 54, 60, 69

Colomb (christophe) : 42

D

Diogene : 51

- د -

درايزان : 43 ، 45 ، 46

- س -

Cirque

سيرك : 37

- ش -

Chemin de fer

الشمندفير : 53

- ف -

Vapeur

الفابور : 32 ، 33 ، 34 ، 35 ، 36 ، 39 ، 76

- ق -

Garde Nationale

قارديناسيونال : 49

القايق : 32

Capitaine

قبودان : 33

قشلاق : 34

- ك -

Course

كمرك : 31 ، 36 ، 74

Golf de lion

كورس : 36

Colline

كولف دوليون : 36

كولين : 36

- ل -

لوكندة : 38

الرحلة الاندلسية فهرس

5	تقديم
9	شكر وتقدير
11	البحث عن المخطوطات والرحلة العلمية
15	علي الورداني
19	سير الرحلة وأهميتها
29	الرحلة الاندلسية
31	مبدأ الرحلة
34	أزمير
36	مرسيليا
40	مدينة مدريد
45	ميدان الثيران في مدريد
49	الاسكريال
51	مطالعة مهمة
53	ظليطة
56	اشبيلية
57	قصر اشبيلية
58	غرناطة
65	قرطبة
68	جامع قرطبة
69	بلنسية
70	برشلونة
	أسماء الكتب المنتخبة من المكتبة العمومية
77	بمدريد قاعدة اسبانيا الآن
78	الكتب المنتخبة من المكتبة التي ببلد الاسكريال
79	أسماء الكتب المنتخبة من المكتبة بالاندلس

Francisco : 70

François 1^{er} : 60

Isabelle : 42

Napoléon 1^{er} : 55, 67

Philippe II : 41, 50, 51, 52

Simonet : 61, 71

سحب من هذا الكتاب 3.000 نسخة
في نشرته الأولى

طبعة القومية للنشر